حسان بن ثابت وشعره

« دراسة تحليلية »

تأليف الدكتور

علي أحمد الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

حسان بن ثابت الأنصاري

هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، ويكنى أبا الوليد، وأبا الحسام وأبا عبد الرحمن، وهو من بني النجار، ثم من الخزرج، ينتهي نسبه إلى قحطان، فهو إذا يمنى، ولد في يثرب، ولم يذكر أحد من الرواة الأخيار سنة مولده، ونشأ فيها.. فهو إذًا من أهل المدر، وعلى نشأته الحضرية، كان متأثرًا بالحياة البدوية، ويظهر ذلك جليًا في شعره.. فتراه حينئذ فيه بدويا رقة الحضر، وحضريًا فيه خشونة البداوة، وقساوتها، وبخاصة الشعر الذي أنشده في جاهليته، وأمه (الفريعة) بنت خنس من بني النجار، والفريعة بالفاء والعين المهملتين مصغر (فرعه) بالتحريك، وهي القملة الكبيرة[1].

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (وأمه الفريعة ابنة خالد بن قيس بن لوزان بن عبدوذ بن ثعلبة بن الخزرج)، وهو جاهلي إسلامي متقدم في الإسلام، إلا أنه لم يشهد مع النبي ﷺ مشهدًا؛ لأنه .كان جبانًا، وعلى أنه كان مشهورًا بجبنه، فلم يناصر الدين بسيفه، وإنما نصره بلسانه، وكانت له ناصية يسد لها ما بين عينيه، وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله، ويقول: ما يسرني به مقول أحد من العرب، والله لو وضعته على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، وعاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، وهو من المخضرمين. مات في خلافة معاوية سنة ٥٤ للهجرة، وكف بصره في آخر عمره.

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ١/ ٢٢٧ وما بعدها تحقيق عبد السلام هارون ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م.

ولما صدع النبي ﷺ بدعوته لحقه أذى كثير من أهل مكة، فهاجر إلى المدينة. ولم يكف أعداؤه عن تعييره وهجائه، فأذن لحسان بن ثابت أن يعارضهم بمثل قولهم، فكان يهجوهم بأقوال أشد عليهم من وقع النبل، ومدح محمداً ﷺ بقصائد غراء، جاءت غاية في الحسن، والروعة والجمال، وكان يدلى لسانه ويقول: والله لو وضعته على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، وله شعر كثير في المدح والفخر والوصف والرثاء والهجاء، فمن قوله يفتخر:

ولقد يعلم من حاربنا

اننا ننفع قدما ونضرُ

صُبُرُ للموت إن حل بنا

صادقُوا الباس عضاريف فخر

ومن قوله يمدح الأنصار:

قومٌ إذا حاربُوا ضروا عدوهُمُ

اوْ حاولُوا النفع في اشياعهم نفعوا

سجيةٌ تلك منهم غير محدثةٍ

إن الخلائق فاعلم شرها البدعُ

وكان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - يفد على ملوك غسان بالشام، وكان يمتدحهم. ومن جيد شعره فيهم:

اولاد جفنة حول قبر ابيهم

قبر ابن جارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم

بردي يصفق بالرحيق السلسل

يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

ولما سار (جبلة بن الأيهم) إلى بلاد الروم، ورد على ملك الروم رسول معاوية فسأله جبلة عن حسان، فقال له: شيخ كبير قد عمي، فدفع إليه ألف دينار، وقال ادفعها إلى حسان. قال: فلما قدمت المدينة، ودخلت مسجد رسول الله ﷺ، رأيت فيه حسان بن ثابت، فقلت له: صديقك (جبلة) يقرأ عليك السلام. قال حسان: فهات ما معك، فقال يا أبا الوليد كيف علمت؟ قال ما جاءني منه رسالة قط إلا ومعها شيء.

وولد لحسان - رضي الله عنه - عبد الرحمن بن حسان من أخت مارية القبطية : أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ وكانت تسمى (سيرين) وكان عبد الرحمن بن حسان شاعراً، وكان له ابن يقال له (سعيد بن عبد الرحمن بن حسان) وكانت لحسان بنت شاعرة. وأرق حسان ذات ليلة؛ فعنّ له الشعر، فقال:

متاريك اذناب الأمور إذا اعترت

اخذنا الفروع واجتثثنا اصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئًا يقوله وصعب عليه إنشاد الشعر بعد هذا البيت، فقالت له ابنته كأنك قد أجبلت يا أبه؟! قال: أجل قالت: فهل

لك أن أجيز عنك؟. وقال: وهل عندك ذلك؟، قالت: نعم قال: فافعلي. فقالت:

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا

كرام يعاطون العشرية سولها

فحمى الشيخ فقال:

وقافية مثل السنان رزئتها

تناولت من جو السماء نزولها

فقالت:

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده

ويعجز عن أمثالها ان يقولها

وانقرض ولد حسان، فلم يبق له عقب[1].

ولما ظهر الإسلام، وهاجر النبي ﷺ إلى يثرب؛ أسلمت الأوس والخزرج، وأسلم حسان، وعلى الرغم من أنه كان جبانًا؛ فلم يناصر الدين بسيفه، وإنما نصره بلسانه، وبذلك صار شاعر الرسول ﷺ وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول له: اهجهم وروح القدس معك،

(١) راجع في ترجمته: الشعر والشعراء لابن قيه الدينوري ط ص ٢٢٣ وما بعدها نشر وتوزيع دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان سنة ١٩٦٤م وتاريخ الآداب العربية تحقيق الدكتور/ علي نجيب عطوي المجلد الأول ص ١٤٩ وما بعدها نشر مؤسسة عز الدين ط الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م وطبقات ابن سلام ١٧٩، وما بعدها وشرح شواهد المغني ١١٤ والأغاني ٤/ ٢، وما بعدها والموشح ص ٦٠ ومعجم الشعراء للمرزباني وتهذيب ابن حجر وتاريخ آداب اللغة العربية لكارل بروكلمان. ومقدمة ديوانه ط دار صادر ـ بيروت ـ لبنان بدون تاريخ.

وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يدله على معايب القوم ومثالبهم، وعلى من ينبغي هجوها من النساء، شعر حسان في الجاهلية أجود من شعره في الإسلام، يقول (الأصمعي): شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه الإسلام «وقيل لحسان» ألان شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام، فقال يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الكذب، أو يمنع الكذب، وإن الشعر يزينه الكذب، يعني بذلك ما يدخل في الشعر من المغالاة، وتجاوز الحقيقة، ومع هذا.. فنحن نرى أن شعر حسان ـ رضي الله عنه ـ جاء قويًا في الإسلام، وكذلك استطاع أن يصور العصر الإسلامي زمن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ والصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ أصدق تصوير، بما فيه من مناضلة بين الإسلام والشرك، كما أنه يعطينا صورة واضحة عن تهاجي الأنصار والقريشيين، وعما في هذا الهجاء من فحش وإقذاع، وهو لون جديد دخل بشعر حسان الآداب العربية، فنجد فيه ذلك اللون من الشعر السياسي المسنود إلى العقيدة، هو بذلك مهد الطريق إلى الشعر الإسلامي الذي ينافح عن العقيدة، وينصر الدعوة، ويدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق. يقول أبو عبيدة «فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام، وشهد له الحطيئة فقال: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشهر العرب، حيث يقول:

يغشون حتى ما تهر كلابهم

ولا يسألون عن السواد المقبل

كما شهد له النابغة في الجاهلية. وقال له: إنك لشاعر. كل هذا يدل على أنه كان شاعراً فحلاً مجيداً، يتصرف في فنون الشعر، وقد عرفت ديباجته بنقاوتها وجزالتها، وسهولة ألفاظها، وقد أجمع الرواة على أنه أشعر أهل المدر.

يقول حسان بن ثابت يمدح النبي ﷺ ويهجو أبا سفيان قبل الإسلام يوم فتح مكة.

عفتْ ذاتُ الأصابع، فالجواءُ ∴ إلى عذراء منزلها خلاء
ديارٌ من بني الحسحاسِ قفرٌ ∴ تُعفيها الرَّوامسُ والسماءُ
وكانت لا يزال بها أنيسٌ ∴ خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وشاءُ
فدعْ هذا ولكن من لطيف ∴ يؤرقني إذا ذهب العِشاءُ
لشعثاءَ التي قد تيمتهُ ∴ فليس لقلبه منها شفاءُ
كان سبيئة من بيت راسٍ ∴ يكونُ مزاجُها عسلٌ وماءُ
على أنيابها أو طعم غَضٍّ ∴ من التفاح هصره الجناء
إذا ما الأشرياتُ ذُكِرْنَ يوماً ∴ فهن لطيب الراح الفداءُ
نوليها الملامة إن ألمنا ∴ إذا ما كان مغث أو لحاءُ
ونشربها فتتركنا ملوكاً ∴ وأسداً ما ينهنهنا اللقاءُ
عدمنا خيلنا إن لم تروها ∴ تُثير النقعَ موعدها كداء
يبارين الأسنة مصغيات ∴ على التافها الأسلَ الظماءُ
تظل جيادُنا متمطراتٍ ∴ تلطمهُنَّ بالخمرِ النساءُ
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ∴ وكان الفتح وانكشف الغطاءُ
وإلاَّ فاصبروا لجلاد يومٍ ∴ يعزُّ اللهُ فيه من يشاءُ

وجبريلُ أمينُ اللهِ فينا ∴ وروحُ القدسِ ليس له كفاءُ
وقال اللهُ قد أرسلتُ عبداً ∴ يقولُ الحقَّ إن نفع البلاءُ
شهدتُ به وقومي صدقوهُ ∴ فقلتم ما يحب وما نشاءُ
وقال اللهُ: قد يسرتُ جنداً ∴ هم الأنصارُ عرضتها اللقاءُ
لنا في كل يوم من معد ∴ سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
فنحكم بالقوافي من هجانا ∴ ونضربُ حين تختلطُ الدماءُ
ألا أبلغ أبا سفيان عني ∴ مُغلغلةً، فقد برح الخفاءُ
بأن سيوفنا تركت عبداً ∴ وعبداً لدارِ سادتُها الإماءُ
هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ∴ وعند اللهِ في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفءٍ ∴ فشركما لخيركُما الفداءُ
هجوتَ مباركاً براً حنيفاً ∴ أمينَ اللهِ شيمتهُ الوفاءُ
أمن يهجو رسولَ اللهِ منكم ∴ ويمدحهُ وينصرهُ سواءُ
فإن أبي ووالدهُ وعرضي ∴ لعِرضِ محمدٍ منكم وقاءُ
فإما تثقفن بني لؤي ∴ خذيمةَ إن قتلهم شفاءُ
أولئكَ معشرٌ نصروا علينا ∴ ففي أظفارنا منهم دماءُ
وحِلفُ الحارث ابنُ أبي ضرار ∴ وحلف قريظة منا براءُ
لساني صارمٌ لا عيب فيه ∴ وبحري لا تكدره الدلاءُ[1]

(١) الديوان ص ٧، ٨، ٩، دار صادر ـ بيروت لبنان . يد وتاريخ، وتهذيب سيرة ابن هشام ـ تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة التوعية الإسلامية ص ٢٩٥ وما بعدها. ط الثالثة سنة ١٣٩٦هـ سنة ١٩٧٦م.

الأبيات: من ١:٧:

اللغة:

عفار الرسم: درس وبلى فهو لازم كما في هذا البيت، وقد يتعدى بنفسه فيقال: عفته الريح أى محته وأزالته.

ذات الأصابع، والجواء، وعذراء: أسماء أماكن كانت في إمارة بني جفنة من غسانة الشام ـ وكان (حسان) ـحتى الله عنه : ـ ينزل في هذه الأماكن يوم أن كان ينتجهم بشعره في الجاهلية، والأولان كانا بأكناف دمشق والثالث على يريد منها.

منزلها: المراد منازلها لأن المفرد المضاف إلي الجمع يعم، والضمير المضاف إلي المواطن الثلاثة السابقة.

خلاء: خاوية على عروشها ـ منزلها خلاء: تأكيد للمعنى المفهوم من عفو تلك المواطن، والغرض منه إبراز ما يؤلمه وهو خواؤها من أهلها، والبيت خبر أريد منه التحسر والتحزن والأمل الممعن.

الحسحاس: الرجل الذي يطرد الجوع بسخائه، بيد أنه هنا علم منقول سمى به ابن مالك بن عدي بن النجار، وهو خزرجي من قبيلة (حسان) تعفيها: تمحوها والتعبير بالمضارع يفيد التجدد، والحدوث، والتضعيف يقيد المبالغة.

الأنيس: من يسكن إليه القلب، وتزول به الوحشة ـ المروج : مفرده: «مرج»: وهو كل أرض واسعة ذات نبت كثير تمرح فيه

الدواب وترعاه.. النعم الإبل، ويطلق أيضًا على البقر والغنم والمراد هنا الشاء واحدها (شاة) وتطلق على المذكر والمؤنث من الغنم، أو منها ومن المعز.

دع هذا: أى اتركه، ومن لطيف : استفهام قصد به التمني. العشاء أول الظلام من الليل، والشعثاء: هي إحدى من كان يشبب بهن (حسان) ويروى أنها كانت بنت «كامن الأسلمي الخزاعي» وكانت زوجًا «لحسان بن ثابت» رضي الله عنه ـ وفي رواية أنها بنت «سلام بن مشكم اليهودي» وقد أكثر (حسان) من التغزل فيها، والراجح أنها هذه لأن الأولى لم يوفق معها (حسان) فافترقا وتهاجيا.

تيمته: استعبدته بحبها وأسرته بقلبها، وأحاطت بأقطاره بهواها فليس لقلبه منها شفاء.

سيئة: فعلية بمعنى مفعولة. من سبأ الخمر إذا اشتراها لشربها ويروى «خبيئة» بمعنى مكنونة معتقة. بيت رأس: يقول ياقوت: «اسم لقريتين بالشام تعرفان بكثرة الكرم والخمر. إحداهما «بالقدس»، والثانية بمناحي «حلب» مزاجها روى بالنصب فهو «خبر» يكون مقدم، وروى بالرفع فهو مبتدأ والجملة خبر «يكون» واسمها ضمير الشأن، على أنيابها: خير «كأن» وبه تم التشبيه، ومنه عرف المشبه وهو «حريق» والأنياب من الأسنان أربع تقع خلف الرباعيات يمينًا وشمالاً من أعلى ومن أسفل، واحدها «ناب» مؤنث. وهي غير مقصودة لذاتها في البيت، وإنما خصت بالذكر لأنها تحدد المقبل من الضم ومن المقبل يتذوق الريق، وهو المقصود بالتشبيه والوصف أو طعم:

عطف على «سيئة» فهوابتداء تشبيه آخر للريق غصن: ناضر طريء ناعم: هصره. مضعف «هصره» بمعنى أما له وحق له في أغصانه. الجناء ـ اسم مصدر من «أجنى الثمر» بلزوم الفعل. بمعنى أدرك ونضج وحان قطافه. ويمكن أن يكون ممدود «الجني» بزنة «القطا» مصدر: جني الثمرة يجنيه إذا قطفه، كأنه التفاح، لاكتمال نضجه لم يتحمل أيدي قاطفيه فتكسر.

المعنى:

يحدثنا الشعر «حسان بن ثابت» أنه حزين لما أصاب هذه الديار من دُثُور وبِلَى، وهي ديار تربطه بها ذكريات، وإن أشدّ ما يؤلمه إقفارها من أهلها، وخلوها من الأنيس والجليس فقد تعاقبت عليها عوامل البلى ومحتها محواً، ومما يزيد الشاعر أسىً وحزنًا أن أهلها الذين خلت منهم الدار هم أهله بمن يأنس بهم، زاخرة بمظاهر الخصب وأسباب العمران. ثم نرى الشاعر يترك الحديث عن الدار وينتقل انتقالاً مقتضبًا إلى الغزل متمنيًا من يكفيه طيف محبوبته التي أرقته، وعاد لم تكتحل عينه بنوم، وقد انقضى السامر ولاذ الناس إلى مضاجعهم، وانفرد به طيفها، فأرقه، وأصابه بالسُّهاد، مقاس عذاب الأرق، وطول الليل ـ وما أشد طول الليل على العاشقين والمحبين، وبخاصة المريض الشاكي أو الحزين الباكي. فالشاعر يقر أنه لا أمل في برئه من حبها إنه طيف شعثاء، تلك التي استعبدته بحبها، ودله عقله غرامها، ولذلك كان منم الأماني الضائعة احتماؤه من خيالها، ومما يُقاس في حبها، ويتحدث عن رضابها فهو رضاب حسناء يشبه

الخمر المنتقاة والمجلوبة من أشهر البلاد صناعة لها وقد مزجت بماء يذهب مرارتها وعسل يكسبها حلاوة في الطعم والمذاق، ثم يختم الشاعر ذلك التشبيه الجميل الرائع وهو يشبه رضاب الحسناء بالخمر فتشبيه آخر وهو طعم التفاح الناعم الطري الناضر ـ وبهذا نعرف وقع ريقها لدى حسان فهو ريق يملأ نفسه نشوة وانشرحًا ويفعل به لما تفعل الخمر بالشارب الثمل من لذة وحلاوة.

الأبيات من ٨:١٠:

الأشربات جمع : أشربة «وهي جمع: شراب: والعدول عن صيغة الجمع إلى جمع الجمع لإفادة التعظيم وهو دليل على مكانة الخمر وعظمها لديه. الفداء ـ ما يضحى به من أجل سلامة الشيء وحفظه. نوليها الملامة ـ نجعلها مسئولة عما يوجه إلينا من لوم ـ والملامة واللوم: مصدر: لامه: بمعنى عذله وكدره بالكلام على عمل لا يليق. ألمنا: روى للفاعل لازمًا، ومعناه فعلنا ما يوجب اللوم، وروى مبنيًا للمجهول فهو من : ألامه من أى: لامه وعتب عليه من المغت والمماغتة. التضارب بالأيدي. اللحاء والملاحاة: التشائم والمنازعة باللسان.

ملوكًا وأسدًا. تشبيهان مبين بهما وجها آخر من محاسن الخمر، وهو تأثيرها الطيب في نفوس شاربيها.

المعنى:

ونرى الشاعر يجره الحديث عن ريق محبوبته الحسناء إلى وصف الخمر وما تفعله في نفس شاربها، وهي أيضًا صورة متممة للصورة

السابقة، كما أن العبث يعبر عن رأى الشاعر في الخمر فهي لديه فوق كل شراب وكل الأشربة فداها لقوة مخامرتها للعقول، فهي تفقدهم العقل ولذلك ألقوا عليها المسئولية كاملة حين يوجه اللوم إليهم فهي السبب في أنهم لا يعقلون، ولا إلى كلام الناس يفطنون. وهم يشربونها فتسموا بنفوسهم، حتى ترتفع بهم إلى مستوى الملوك، عظمة وأبهة، ويبلغون بها درجة الأسود وشجاعة وباسلة وهذا كله من أثر النشوة، والالتذاذ بشربها، وقوة أثرها في نفوسهم.

الأبيات من ١١: ١٣:

عد مناخيلنا: فقدناها. وهو أسلوب كنائى مقصود به لازمه وهو فقد العزة ولحوق الذل والمهانة بهم؛ لأن الخيل من أسباب القوة لدى العرب، ومن فقدها فقد العزة والقوة ولحقه الذل والصغار والمهانة، وهو أسلوب خبري حسب الظاهر، إنشائى بحسب المقصود منه وهو الدعاء على نفسه وقومه بالذل والهوان إن لم يحققوا ما دهدد به قريشًا وهو الغزو، والدعاء على هذا النحو مسلك من مسالك التأكيد التي يدرسها البديعيون تحت عنوان [القسم] وقاعدته: أن يعلق المتكلم على ما يريد تأكيده منفعل أو ترك أمرًا محبوبًا أو مكروهًا بالنسبة له أو لغيره أو التأكيد بهذه الطريقة أقوى من الحلف، وأوقع في النفس وهذا واضح في بيت حسان، فقد جعل الضعف والذل جزاء له ولقومه إن لم ينجزوا تهديده، والطبع العربي السليم يفهم من هذا التعبير تصميم صاحبه على إنقاذ ما هدد ولو ضحى بنفسه، لأن العربي يقبل الموت، ولا يقبل الذل كل الثنية العليا من مكة، وتلك نبوءة لحسان سبقه إليها الشاعر «كعب بن مالك

الأنصاري» حين قال:

فلا تعجل ابا سفيان، وارقب

جياد الخيل تطلع من كداء

ولعل ذلك كان عقيب غزاة «أحد». وقد حققها الله فكان طريق «كداء» أحد المنافذ التي دخلت منها جموع المسلمين يوم الفتح. يبارين الأسنة: يسابقن ـ والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح وشباته ويروى «يبارين» «ويجاذبن» والأعنة جمع «عنان» وهو سير اللجام وعبارة «يبارين الأسنة» تصور اندفاع الخيل الغازية، وإسراعها المتزايد نحو المعركة بصورة رائعة فيها حركة متتابعة، وقد قبس حسان هذه الصورة من وضع الرياح حين يضعها الفرسان وضع الاستعداد للطعن وهم في طرقهم إلى العدو، حيث يضجعون قوائمها على الخيل، وتكون أسنتها متقدمة أمام عيونها.

وقد أدرك حسان هذا برهافة حسه، ودقة ملاحظته فاستغله في توليد هذه الصورة العجيبة الرائعة، وخيل إلينا أن الخيل حين ترى الأسنة أمامها تظن أنها تسابقها، فتضاعف من سرعتها حتى لا تفوتها، ولكنها تنتقل دائمًا بانتقالها، فلا تلبث أن تراها، ويزداد نشاطها فهو سباق من نمط غريب عجيب وسرعة فائقة لا حد لها ـ الأسل: مفرد أسلة وهي الرماح، وهو في الأصل اسم لنبات دقيق الأغصان مستقيمها طويلها وهي صفات تستحب في الرماح، ولذلك سمتها العرب «أسلا». والظماء: العطاش، والمراد هنا الظمأ إلى الدماء.

يصور تشوق الأعداء إلى لقاء الأعداء ووصف الرماح بالظمأ [مجاز] علاقته المجاورة، وفائدته إثبات أن تلهف القراة للقاء الذي صوره بصورة العطش قد تجاوز الحد، وفاض حتى أعدى الرماح.

تظل: تستمر: متطمرات: مسرعات. تلطمهن ـ أصله «ضرب الوجه بالكف وهي مفتوحة»، والمراد هنا مطلق ضرب الوجه، وتضعيف الفعل يفيد المبالغة. كما أن تلطيم النساء وجه الخيل يشعر بانهيار مقاومة الرجال واضطرارها للدفاع، وفي الوقت نفسه تصوير لجزعهن من ضراوة الغزو، حيث يخرجن حاسرات الرءوس يلطمن الخيل تجمرهن، وهي لا ريب سلاح مغلول، ومحاولات يائسة ونرى في تلطمهن (وهو مضعف للمبالغة) مأخوذ من طله الجيزة إذا حزبها بيده وسواها. فيكون بذلك معناه (الضربان) وليس المسح على وجوه الخيل؛ لأن مسح وجوه الخيل يكون تلطفًا، وهنا لا تلطف بل هلع وفزع وجزع، والحزن من هول ما رأين. من عنف الغزو، وضراوة الاقتحام. والنساء هنا نساء المشركين، وروى أن رسول الله ﷺ رأى نساء هذا اليوم المشهود يلطمن خيول المسلمين بخمرهن فتذكر ما قاله (حسان) فسأل عنها أبا بكر وقال: أنشد بعض أبيات (حسان) يريد: عدمنا خيلنا..

إما وهي من إن الشرطية مدغمة في (ما) الفتح: يقصد به دخول مكة بالسلم تحقيقا لما وعد الله به نبيه من أنه سيدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم، و مقصرين، وليس مقصوداً به الفتح الذي تحقق، وهنا يتضح لنا من المقابلة بينه وبين

الجلاد، وفي البيت الذي يليه. انكشف الغطاء: انجلى الغموض، وتحقق وعد الله بدخولنا مكة.

إلاَّ: هي: إن الشرطية أدغمت في (لا)، والمعنى: وإن لم تعرضوا عنا.. الجلاد. التضارب بالسيوف، يعز: يجعله عزيزاً لا يغلب ولا يقهر، ويروى يعون الله: أي يمده بعونه.

(وحسان) ـ رضي الله عنه ـ أبهم المفعول ليحتمل المعنيين، وأن يفسر بتفسيرين: يفسر للمسلمين ويفسر للمشركين، وذلك ليوهم أن تعين المقصود من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى تخصيص؛ لأنه من الأمور المعروفة أن الغلبة والنصر للمسلمين. وهذا شأن كل واثق من نفسه حينما يتحدى خصمهُ ومثل هذا الأسلوب أوقع في النفس، وأقوى في إثبات ما يبغيه الإنسان من التصريح، ومع هذا فالأبيات التالية تذكر من صفات المسلمين ما يؤكد أن المسلمين هم المنصورون بعزة الله. فيهم روح القدس، وهم المؤمنون به وبرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفيهم الأنصار جند الله الذين أعلوا كلمته فمما لا ريب فيه أن الغلبة والنصر لهؤلاء الأجناد ولا يمكن أن تكون لأحد سواهم.

روح القدس: ما به حياة من الإنسان، وهي الكامنة في الجسد «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

والروح: جبريل عليه السلام ـ «نزل به الروح الأمين على قلبك

لتكون من المؤمنين»، و«تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر»، والروح «عيسى عليه السلام» وكلمته التي ألقاه إلى مريم وروح منه»، و«فنفخنا فيه من روحنا» الروح: القرآن «وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء»، والروح: النصر والغيث من الله عز وجل.

ويطلق تجوزًا على ما ترتفع به قيمة الشيء، أو أن يكون شيئًا في ظهور أمره، القدس: الطهر، كفاء: نظري وعديل، والمراد بالعبد: محمد عليه الصلاة والسلام إن تقع البلاء: هذا شرط وجوابه محذوف يفهم من سياق الكلام والتقدير إن نفعكم الاختيار. عرفتم أنه يقول الحق: «شهدت به وقومي صدقوه» بإضافة قوم إلى ياء المتكلم، وهو بذلك يكون من كلام (حسان) يقرر أنه وقومه آمنوا به وصدقوه على حين كفرتم به وحاربتموه، ويروى (شهدت به فقوموا صدقوه) بصيغة الأمر في الحالين، وهذا احتمال أن يكون أيضًا من كلام (حسان)، يسرت: هيأت. ويروى (سيرت) أى جعلته (يسيرون) الأنصار: الأعوان، فيكون بذلك وصفًا قد أطلق على أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين آووا الرسول عليه الصلاة والسلام، ونصروه هو وأصحابه - رضي الله عنهم فيغلب ذلك الوصف عليهم حتى صار اسمًا لهم، ولذلك ينسب إليه على صيغته دون الرجوع إلى المفرد فيقال: «أنصاري» وقد أشار (حسان) إلى السر في هذه التسمية

سماهم الله الأنصار، لنصرهم دين الهدى، وعوان الحرب تستعر[١].

(١) الديوان ص ١١٢ من قصيدة بعنوان «خير مؤتمن». ط. دار صادر بيروت بلبنان بدون تاريخ.

العرضة: الهمة والعزم القوي أو الهدف والغرض من قولهم «فلان عرضة لهذا الأمر»: أى قوى عليه. (مَعَدّ) هو الجد الأعلى لقريش، إليه ينتسب أكثر عرب الشمال، وليس المقصود منه «الرجل» وإنما المقصود: المنتمون إليه وهم كل القبائل العدنانية - السباب: الشتائم والتراشق بقوارص الكملة. الهجاء: تَعداد المعايب والمثالب. وهو غالب على ما يكون شعرًا. نحكم من هجانا وهو مقيوس من (أحكم الفرس) إذا ألبسه الحكمة، وهي الحديدة التي تحيط بفكيه من اللجام وإرادة الكل تختلط الدماء: كناية عن احتدام المعركة وكثرة القتلى، وهو كناية عن بسالة وشجاعة الأنصار.

المعنى:

يدعو الشاعر على خيل المسلمين بالفناء، وعلى المسلمين بأن يلحقهم الشنار، والذل والعار! إن لم تتأهب الخيل لهذا اليوم الحاسم وتثير النقع الذي ينبعث من سنابكها. حتى يكون ظلاً فوق رءوس المقاتلين متسابقة في الدخول إلى مكة المكرمة - كما أنه يدعو علي الفرسان بأن يلحقهم الذي إن لم يغزوهم غزواً مروعًا من فوق صهوات الخيل داخلين مكة من كداء، ويومذاك ستندفع إليكم خيولنا في سرعة متزايدة فائقة يعتلي صهواتها فرسانا مغاوير. كلما رأت الأسنة تزايد اندفاعها واستمر انطلاقها متبارية مع الأسنة متتابعة في الدخول إلى مكة من كداء، حتى إذا وصلت إلى غايتها وحققت رغبتها، لم تجد من ينبري لها إلا النساء اللاتي خرجن حاسرات الرءوس يلطمن الخيل بخمرهن وتلك حالة يائسة عاجزة، وسلاح

خائر مغلول ونحن قادمون إلى مكة. فإن نأيتم عنا وابتعدتم عن طريقنا، ودخلناها سالمين مؤدين العمرة. تحقيقًا لوعد الله بفتح مكة ونصرة نبيه عليه الصلاة والسلام، وبذلك يكفي الله الفريقين شر القتال.

فإن تعرضتم لنا، وأعددتم العدة لقتالنا، ونهضتم لحربنا ولقائنا، عنادًا أو غطرسة، فلا طريق إلا الدم المراق. تمهلوا ليوم اللقاء والانتقام يوم يمنح الله - عزَّ وجلَّ - عزته ونصرته لمن يشاء، وقد منحهم - عزَّ وجلَّ - أسباب النصر، وهي:

أن الله عز وجل معهم يمدهم بتأييده، وروح القدس معهم، يقاتل في صفوفهم، فهو أمين الله ولا عديل له بين صفوفكم، ومن مقومات النصر أيضًا الإيمان والعقيدة الراسخة في نفوس المؤمنين المقاتلين، ومما لا ريب فيه أن القتال العقدي يقوي الروح، ويثبت المؤمن لأنه ينافح عن الحق المؤمن به. فيزيده استبسالا وشجاعة في الدفاع عنه، والتضحية في سبيله بكل غال مرتخص، وإن القوة المقاتلة، هم الأنصار جند الله سبحانه أعدهم لنصرة دينه وإعلاء كلمته، وهم المتمرسون بفنون المعارك فقد سبروا أغوارها، وخبروا أسرارها. عقيدتهم ثابتة، وإيمانهم راسخ وهم من أصحاب الهمم العوالي هدفهم منازلة الأقران، وهمتهم العالية قيمة بذلك، وخليقة بأن يكونوا أقوياء على المجابهة والمواجهة. ثم يومىء(حسان) إلى العداوة المتوارثة من قديم الزمان بين «العدنانيين» ومنهم قريش (والقحطانيين) ومنهم (الأنصار)ويعرب عما لهذه العداوة من مظاهر

ثابتة يتجلى في الصراع الدائم بين الفريقين في كل ميدان من ميادين البيان والحرب، وهنا يضيف (حسان) سببًا آخر وميزة من ميزات التفوق السابقة على الأعداء وهي أنهم يخوضون المعارك مع القريشيين ونفوسهم مفعمة بالضغائن القديمة والرواسب الماضية، وذلك من دواعي استعار الحرب، وضراوة القتال وشراسة المعارك وعنف الانتقام، وذلك يوم اللقاء.

والأنصار هم جند الله عزَّ وجلَّ يلقون محاربيهم ببسالة قاهرة، وشجاعة نادرة، كما أنهم يقابلون هاجيهم بهجاء يؤذيه وألفاظ تشدُّ به، وأساليب تجعله يكفي عن الهجاء، ويمتنع عن السباب والشتائم وهم بذلك يملكون أزمة البيان، ويأخذون بتلابيب البلاغة، كما أنهم يملكون شجاعة القتال والبسالة لدى لقاء الأعداء يوم أن تختلط الدماء.

الأبيات من ٢٢: ٤٣٢:

اللغة:

ألا: أداة استفتاح، يؤتى بها للتنبيه على أهمية ما بعدها. أبلغ: أمر بالتلبليغ لا يتجه الخطاب فيه إلى معين بل يتجه إلى كل من يستطيع التبليغ إلى أبي سفيان، وهو ابن عم النبي ﷺ وكان عدوًا لدودًا للإسلام والمسلمين ونبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - وقد أراد (حسان) - رضي الله عنه - بذلك الأسلوب أن يستتح على أبي سفيان.

المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى بلد في سرعة فائقة. تقول:

غلغل الرجل إذا أسرع في سيره، وغلغل رسالة إلى غيره: يعني بعثها محمولة من بلد إلى بلد آخر. يرح الخفاء: انجلى الغموض. فهو بهذه الرسالة سيكشف أمره للناس ويروي. (فأنت مجوف نخب هواء) خطاب لأبي سفيان على طريقه «الالتفات» المجوف: الجبان اسم مفعول من (جوفه) إذا نزع ما في جوفه، ومنه (القلب) فإذا نزع قلبه انتزع محل الشجاعة منه، وكذلك الأجوف (المجوف) مثل (معْوَل) من: اسمًا للمفعول: إذا استعملا في مثل هذا الموطن. النخب والمجوف والهواء: المعنى واحد وهو الجبان، والنخب أصله نخب الصيد إذا نزع قلبه وهو بزنة (كتِف).

العبد ـ القِن: الرقيق، وهذا المعنى ليس بمقصود هنا وإنما المقصود لازم هذا المعنى، وهو الذل والهوان. عبد الدار: بطن من قريش وقد كانت لهؤلاء القوم في الجاهلية وظائف اجتماعية معروفة لدى العرب من هذه الوظائف (اللواء)، (الإماء) النساء. يومىء الشاعر بسيادة النساء لبني عبد الدار، وذلك حينما صرعوا واحدًا إثر واحد في «وقعة أحد» حتى سقط اللواء من يد آخرهم فأنفذته (عمرة بنت علقمة الحارثية) فرفعته، واجتمعت عليه قريش بعد تفرقها، وبذلك كانت لها القيادة، الجزاء: الأجر والمكافأة إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. ومن استعماله في المكافأة على الشر بمثله قوله سبحانه: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) أتهجوه: استفهام إنكاري توبيخي، الفداء: ما يضحي به لدفع الأذى. والغرض من الشطر الأخير الدعاء بزن يذهب شر الرجلين ضحية وفداء لخيرهما، وإن كان (حسان) يعلن أن خير

الرجلين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكن جرى أسلوب «تجاهل العارف» وترك للخصم الفرصة ليتدبر الأمر حتى يصل إلى الحقيقة بنفسه فذلك أدعى لإذعانه واقتناعه ورجوعه عن غيّه وعناده، مباركًا: متلبسًا بالخير الإلهي، برًا: كثير البر وفعل الخير حنيفًا: مائلا عن الضلال والغواية إلى الاستقامة والهداية. أمن يهجو استفهام توبيخي كذلك موجه إلى قريش - منكم: متعلق (بحال) صاحبها رسول الله ﷺ ولا يحسن تعليقه بالفعل «يهجو» وذلك من تعليق مثله بالفعل «يمدح»، لأنه نظيره، وذلك غير جائز، حيث لم يكن في القرشيين حينذاك من يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وفي جعله (حلا) ملحظ دقيق يبين وجه توبيخه لقريش فهو يسفههم على أن يتساوى لديهم من يهجو محمدًا ومن يمدحه، مع أن محمدًا منهم، فنصره من نصرهم وشرفه برسالة الله تعالى شرف لهم فما كان ينبغي أن يسووا بين خاذليه وناصريه.

العرض: موضع المدح والذم من المرء، أو هو كل ما يجب على المرء حمايته من جميع ما يتصل بنفسه، أو شيعته. وقاء: حفظ من شرورهم. تثقفن: مضارع «ثقفه» وهو من باب «علم» بمعنى صادفه ووجده، ولؤي أحد أجداد النبي ﷺ وإليه ينتسب القرشيين وهم المقصودون من بني العداء فغزاهم في السنة الخامسة من الهجرة وجواب الشرط محذوف تقديره فليتقبلوا بهم أو فليعلموا أن مصيرهم من مصيرهم، ودليله (إن قتلهم شفاء).

الحلف: يطلق على العهد والصداقة بين اثنين أو أكثر، ويطلق أيضًا

على جماعة المتعاهدين، والمتصادقين وهو المقصود هنا - الحارث بن أبي ضرار: هو أبو أم المؤمنين (جويرة) زوج الرسول ﷺ ورضى الله عنها كان قبل إسلامه رأس جزيمة في مناواة المسلمين وحلفه هم من تحالفوا معه على حرب الرسول ﷺ. قريظة: حي من اليهود كانوا بالمدينة عادوا النبي ﷺ فغزاهم سنة خمس من الهجرة، وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة حتى ضجروا وارتضوا حكم حكومة (سعد بن معاذ) في الصلح فقضى أن يقتل رجالهم وأن تسبى ذراريهم ونساؤهم، وأن تقسم أموالهم، صارم: قاطع. يشبه لسانه بالسيف البتار في قوة تأثيره وشدة إيلامه لمن يتناوله. تكدره أن تثير الكدر فيه، الدلاء: جمع دلو وهو ما يستقي من الماء استعار البحر لشاعريته، وأثبت له العمق في السعة عن طريق الكناية في قوله لا تكدره الدلاء، لأن الدلاء تعجز عن إثارة الكدر فيه إذا إذا كان الماء بعيد الغور: واسع المضطرب.

المعنى:

وهنا ترى الشاعر الإسلامي (حسان بن ثابت) الأنصاري - رضي الله عنه - يستهل غرضًا جديدًا، ألا وهو هجاء أبي سفيان بن الحارث، فيقرر أن حقيقته قد انجلت، وسريرته قد اتضحت، وأنه في سبيل إعلانها للناس يطلب إلى كل أن يأخذها عنه، ويواجهه بها أبو سفيان بن الحارث دون مداراة أو مواربة. فقد باتت الأمور جلية واضحة، وهذه الرسالة تحمل بين طياتها تحقيرًا لأبي سفيان، وتوبيخًا له حيث فر من الميدان في غزوة بدر الكبرى، وما لحقه من ذلك وشنار، وتحقير

وعار لفراره من الميدان وخيانة القوم الذين ينتمي إليهم، وكان يقاتل بين صفوفهم حتى تولى قيادتهم نساؤهم، والشاعر يومىء إلى أن التي رفعت اللواء بعد خور مقاتليهم (عمرة بنت علقمة الحارثية) فاجتمعت قريش بعد تفرقها، وبذلك كانت القيادة لها، وأما أنت يا أبا سفيان فقد انقطع رجاؤك، وضاع أملك، وخارت قواك، وتبددت أمانيك، وتبخرت أحلامك، حيث إنك لم تفعل شيئًا يوم التقى الجمعان، حيث فررت من الميدان وكذلك لم تفعل شيئًا في ميدان الهجاء. فقد هجوت محمدًا ﷺ فانبريت لك بلساني الصارم البتار ومدافعًا عن رسول الله ﷺ وأن أبا سفيان مسيء يهجوه له، ثم يطعن أبا سفيان في شاعريته بأنه لم يصنع شيئًا في ميدان الهجاء. فقد هجوت محمدًا ﷺ فدافعت عنه وأبطلت هجاءك. وباء هجاؤك بالفشل الذريع، فلقد خضت ميدانًا لست من فرسانه، وتطاولت بهجوك إلى مقام سام، تتقطع دونه أنفاسك. فلم تنل من صاحبك ذي المقام الرفيع - محمد ﷺ واستحق أن يكون الفداء لصاحب هذا المقام. فلقد كنت مغرورًا حين حسبت أنك ستنال بهجائك من الرسول الكريم الذي حوى الفضائل كلها من بركة وأمانة، ونبل وبر، واستقامة ووفاء.

ثم ترى الشاعر قد وبخهم، وسخر منهم، وسفه أحلامهم، كيف يساوي من يهجو محمدًا ﷺ ومن يمتدحه ليسوا سواء مع أن محمدًا منهم فنصره انتصار لهم، وشرفه برسالة الله واصطفاؤه سبحانه وتعالى له شرف لهم. فما كان ينبغي التسوية بين هاجيه وناصره فضلاً عن احتقارهم لهؤلاء المهاجمين، وإذا رضيتم لأنفسكم هذا الشعر في

حق رسول الله ﷺ فقد انتحيت منحى آخر، وفهمت سبيلا غير سبيلك وهو حمايته من شروركم بأبي وجدي وعرضي، وسأواجه شروركم، وأتلقى طغيانكم فداء لرسول الله ﷺ ثم يهدد قريشًا بسوء المصير إن هم ظلوا في غوايتهم، واستمروا في عنادهم، ومكابرتهم، ويذكرهم بمصارع من أوقع الرسول ﷺ بهم من أعدائه، ويحذرهم أن يكون مصيرهم كمصيرهم، فإن لقيتم جذيمة فستعرفوا من حالهم الذليل شر نهايتكم، وسوء عاقبتكم، حيث انتقمنا منهم شر انتقام، وشفينا بإهلاكهم الصدور.

فالشاعر يجلي ضرورة انتقامهم من (جذيمة) ذاكرًا الأسباب فهم أعانوا أعداءنا، وتحدوا جموعنا، وناصبونا العداء، وأصروا في عناد على حربنا، وقتالنا، ويمالئون عدونا. فما كان منا إلا أن بطشنا بهم بطشة الأسود، ونشبنا أظفارنا في رقابهم حتى امتلأت بالدماء، وها هو ذا حلف الحارث بن ضرار رأس جذيمة ـ في مناوءة، وحلف قريظة من اليهود ماثلا أمام عيونكم يصوران بما وصلا إليه من الدمار نهاية لكل ظالم باغ، ويمضي كل معتد أثيم و(حسان بن ثابت) يبتغي من وراء ذلك تهديدهم، ووعيدهم ثم يهددهم تارة أخرى بالهجاء المؤلم الموجع الذي يشبه ضربات الأسياف، وهذا الهجاء ممتد ماله من نفاد فهو يمتح من ركائز شاعرية أصيلة، وملكة غزيرة فهي كالبحر المتبدد الواسع العميق لا يؤثر في مائه، ولا يثير أكداره نزح الدلاء، وهذا دليل على شاعريته الثرة، وخياله الرحيب وإحساسه المرهف وعقيدته الراسخة، وحبه لرسول الله ﷺ.

لا يرتاب أحد من الرواة في أن القصيدة للشاعر «حسان بن ثابت» ـ رضي الله عنه ـ وهي اثنتان وثلاثون بيتًا، كما وردت في ديوانه.. كما أنه أوردها كذلك كل كتاب تعرض لها بالرواية أو الشرح والتحليل وقد دار خلاف حول هذه القصيدة من حيث إنشائها في وقت واحد، ولمناسبة واحدة، والصواب أن ذلك غير صحيح، وأن صدر هذه القصيدة يختلف في مناسبته وزمانه عن بقيتها، وأن أبياتها العشرة الأولى هي من الشعر الذي أنشده (حسان بن ثابت) في الجاهلية ونحن نميل إلى هذا الرأي، بل نؤيده ونسوق على صدق ما ذهبنا إليه من الأدلة والبراهين الساطعة ما يجعل القارئ يؤيدنا فيما ذهبنا إليه، ويرى ما ارتأيناه فإن الأبيات العشرة الأولى تتضمن من الألفاظ والمعاني ما لا يتفق مع سيرة (حسان بن ثابت) وما عرف عنه بعد انخراطه في الإسلام، كما أنها لا تتناسب والوقت الذي قيلت فيه وتعني بتلك المعاني التي تمجد الخمر وتعظمها وتغري بشربها وذلك من مثل قوله:

إذا ما الأشربات ذكرن يومًا فهن لطيب الراح الفداء
نوليها الملامة إن ألمنا إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكًا وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء

فغير معقول أن يصف (حسان بن ثابت) الخمر ويمتدحها ويغري بشربها غيره بعد إسلامه، وبعد انتقاضه عن معاقرتها وشربها

ومجالسها تؤكد ذلك سيرته الذاتية كما أنه ليس معقولاً أن نعد ذلك الوصف من قبيل الصناعة الشعرية، وأنه جرى في ذلك على عادة الشعراء، أو أنه قول غير مصحوب بعقيدة، فالإسلام الذي حرم الخمر، وعدها رجسًا من الأرجاس، وشربها كبيرة من الكبائر، لا يبيح لشاعر أن يحرض الناس على شربها بمثل ما وصفها به في أبياتها آنفة الذكر، وإن كان الواصف لها «حسان» وقد ذكر الرواة أن حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ مر بفتية من أهل المدينة، فوجدهم يشربون الخمر، فنهاهم عن شربها، فاعتذروا إليه بدعابة ومرح عليه مسحة من روح الشباب وعبثه المعهود، وقالوا له: كلما هممنا بتركها أغرانا بشربها قول:

ونشربها فتتركنا ملوكًا وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء

وهم بهذا يلوحون إليه أن اترك هذا النصح لغيرك من الذين لا يعرفون شربها، ولم يذوقوا طعمها، فأقسم لهم أنه ما شرب الخمر منذ دخل الإسلام.

مما تقدم يستبين لنا بجلاء ووضوح تامين أن الأبيات العشرة التي استهل بها حسان القصيدة جاهلية فأسلوبها وصبغتها ومعانيها لا تتواءم وسيرة الصحابي الجليل ـ رضي الله عنه ـ كما أن الحياة الإسلامية يومذاك لا تتقبل مثل هذه المعاني، حيث إن المجتمع الإسلامي يومئذ يموج بالروحانية العالية، والشفافية التامة، وبخاصة في ذلك الوقت الذي أنشد فيه حسان هذه القصيدة. ومن النظرة

الفاحصة للأبيات والوقت الذي قيلت فيه، والمناسبة التي أنشد لها حسان هذه الأبيات من اليسير الهين أن نسبر أغوارها، ونقف على أسرارها، ونحدد الزمن الذي قيلت فيه الأبيات العشرة. فمن روح الأبيات ومعانيها يشيع فيها جو الأسى، وغطيها الحزن، وتشملها الكآبة، وأن المناسبة التي قيلت فيها غير سارة سواء أكانت مقصودة لذاتها، أم أنها جعلت تمهيدًا لغرض شعري آخر. وهنا يظهر تساؤل وهو: ما الذي جعلها تروى في ديوانه وفي جميع مصادر الأدب على أنها قصيدة واحدة؟!، وللرد على هذا التساؤل نقول: يبدو أن «حسان بن ثابت» ـ رضي الله عنه ـ قبل أن يشرع في إنشاد هذه القصيدة التي يهجو فيها أبا سفيان ـ قبل إسلامه ـ ويمدح رسول الله ﷺ ويبشره بفتح مكة من كداء ويمدح الأنصار والمهاجرين، ويجعل عرضه فداء ووقاء لعرض رسول الله ﷺ يترنم بهذه الأبيات الجاهلية، ليملأ نفسه ينغمها، ويمتع نفسه بجرسها، ويستمتع بجزالة لفظها وموسيقاه انطلق بهذه الموسيقا الحالمة، والنغم الممتع فأنشد الأبيات على نفس الوزن والقافية فسمعها الرواة، فرووها على أنها قصيدة واحدة والحق أن هذه الأبيات ليست من القصيدة في شيء، وهناك احتمال آخر، وهو أن بعض الرواة سمع مجموعتي الأبيات، ووجدهما على وزن واحد وروى واحد، ويتشابهان في المستوى الفني، فضم الأبيات وجعل المجموعتين قصيدة واحدة دون تحفظ. أما بقية الأبقية فيما وراء العشرة الأولى فمما لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان أنها

أنشدت في الإسلام، يؤكد ذلك ما انتظمته القصيدة من معاني إسلامية، وما تضمنته من وقائع، وما بدا على الأبيات من مسحة التأثر بالأساليب القرآنية، بيد أن بعض المؤلفين قد يوقعك في اللبس لدى تحديد المناسبة التاريخية لهذه الأبيات، فقد ورد في كثرة كاثرة من الكتب أن الأبيات قيلت في فتح مكة، وهذا لون من ألوان التساؤل في التعبير، فهو تحديد غير صادق، حيث إن القصيدة لم تتحدث عن الفتح كأمر واقع، وإنما تحدثت عنه كوسلية من وسائل التهديد والوعيد لقريش. على الرغم من ورود كلمة الفتح في بعض أبياتها، والمقصود به أمر آخر غير الفتح الفعلي لمكة. حيث إن الجيش الإسلامي دخلها بعد الغزو والجلاد الذي هددهم به حسان في قوله:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيهم من يشاء

فالشاعر يعلق الجلاء على إبائهم السلم، وإصرارهم على منع المسلمين من دخول مكة لأداء العمرة، وقد كان ذلك سابقًا على يوم الفتح، والقصيدة هجاء لأبي سفيان وتبشير بفتح مكة، وأنهم سيدخلونها من طريق كداء. ويمكن أن نستبين التحديد الدقيق لزمن القصيدة، ومناسبتها من بعض أبياتها، حيث تومىء بعض إلى أن المشركين اعترضوا طريق المسلمين ومنعوهم لاعتمار، وكان ذلك الحدث عام الحديبية في السنة السادسة من الهجرة النبوية، حيث خرج النبي ﷺ ومعه المسلمون، وكل من رغب في صحبته من القبائل التي لم تسلم بعد، وكانوا قد خرجوا مسالمين محرومين

يسوقون الهَدى، ليست لهم غاية سوى زيارة البيت. فإذا بكفار مكة يصدونهم محاولين منعهم من الاعتمار. فأنشد «حسان» هذه الأبيات تهديداً لقريش، وهجاء لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

تعقيب:

هذا لون من ألوان الشعر الإسلامي يتناول غرضًا من الأغراض التي تتناسب مع جلال الدعوة وعظمتها، فالمديح والهجاء، وإن كانا من التي تعرض لها الشعر الجاهلي إلا أن الإسلام شذبهما، وهذبهما وصقلهما بروحه، وغمرهما بتعاليمه السامقة، وأهدافه السامية النبيلة، فلم يعد المدح حينئذ سبيلا للكدية والاستجداء، ولا وسيلة من وسائل الثروة والغنى، كما أن الهجاء لم يعد أداة للهدم، وسبيلاً من سبل الانتقاص بدون حق.. بل كانا المديح والهجاء في المجتمع الإسلامي وسيلة وسائل توطيد الدعوة، وسلاح من الأسلحة التي ينافحون بها عن قائد هذه الدعوة ـ سيدنا محمد ﷺ.

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: يتناول كل قسم منها موضوعًا خاصًا فالقسم الأول ينتظم عشرة أبيات استهل الشاعر بها القصيدة بكى الشاعر فيها الديار، وتغزل في محبوبته، ووصف الخمر، وهذه الموضوعات متغايرة في حقيقتها بيد أنها متواشجة القرابة، وتلاحمها تشترك في معنى واحد هو أنها أمور تخص الشاعر وحده وقد راح الشعراء ما بينها من وشائج وأمشاج، وجرت عادتهم على تناولها هي وما يشبهها من حديث النفس ويلائم بينها في حديث واحد يضمره

به القصائد، ويهيئون بها جواً نفسيًا مناسبًا لغرضها الأصيل، وتحدث الشاعر في أبياتها الثلاثة الأولى عن الديار، وبثها حزنه، وأشرك غيره معه في حزنه وأساه، وإن كان الشاعر لم يطلب من أحد هذه المشاركة، أو يستوقف غير ويستبكيه كما فعل شعراء الجاهلية في مقدماتهم الطللية كما رأينا لدى امرىء القيس حين وقف واستوقف، وبكى واستبكى، ووصف الحبيب والمنزل، فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فحسان بن ثابت لم يفعل ذلك بيد أنه لمس الجوانب التي تثير كوامن الشجن لهذه الديار وأبرزها في حديثه فوضع أمام أعيننا دثورها، وخلوها من قطانها الذين هم أهله، وأن هذه الديار وقعت تحت عوامل البلى والمحو التي تعاقبت عليها، والشاعر إذ يضع نصب أعيننا هذه الكوارث التي انتظمت الديار لم يفته أن يضع صورتها السعيدة حيث كانت بالأمس حافلة بالأنس زاخرة بالسمار، ومظاهر الخصب والعمران، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى حديث الغزل في الأربعة أبيات التالية انتقالا فيه اقتضاب. كما أننا نراه في غزله لم يطل، ولم يتخذه غرضًا يجول فيه محاسن محبوبته، ويكشف عن مظاهر الجمال لديها، وإنما قصد أن يرينا مقدار حبه لها وما فقد به ذلك الغرام، ولذلك نراه قد اكتفى منها بطيفها، وريقها وعالجهما على نحو يحقق غايته، ويشعر بعمق هذا الحب، وآثار الغرام في نفسه. أما الطيف فقد شكاه، متمنيًا الحماية منه، فقد اعتاد زيارته في كل ليلة حينما ينفض السُّمَّار، ويخلد إلى نفسه فيستبد الطيف به

ويشغل باله، ويؤرقه فلا تكتحل عينه بنوم، وبذلك يقع فريسة للسهد والوحدة ووحشة الليل. وتمنى الحماية من طيف المحبوبة لا يرغب في أن يقطع صلته بها أو أن يناى بقلبه عنها. لا يريد ذلك، وإنما هي عادة العشاق إذا برح بهم الوجد وقاسوا من عذاب الهجران، حينذاك يأخذون في تجسيم آلامهم، وتمثل الطيف برهانا على تمكن الحب من قلوبهم. رجاء أن يحل الشخص محل الخيال، وأما الريق، فيبدو أن الشاعر كان مغرما بذوقه، حيث تعرض له كثيرًا من شعره. فقد شبهه هنا بخمر متنقاة، ذهبت مرارتها بمزاج من عسل وماء وتارة أخرى بطعم تفاح ناضر ناعم طري. تكامل نضجه، وغايته من ذلك نقل مشاعره إلى الآخرين. بما يجده في نفسه لدى تذوق الريق. فهو يلتذ به، ويقبل عليه بنهم وشره، وسرف، وتمتلىء نفسه بنشوة تنسيه ما حوله، وتبعده عن واقعه فيعيش بذلك في حبال جميل وبذلك تقف على مقدار سعادته في القرب، والصفاء، ومقدار شقائه في البعد والجفاء.

ثم يتطرق الشاعر من الغزل إلى وصف الخمر، فتراه يمجدها ويحرض عليها ويغري بشربها، وسما بها فوق كل الأشربة لقوة مخامرتها للعقول، وشدة سلبها للوعي، وسيطرتها على تصرف شاربها حتى تغدوا مسئولة عنه وعن تصرفاته، وهي تسمو بشاربها إلى جلال الملوك، وتملؤه بشجاعة الأسد، وضراوتها، وإقدامها، والأبيات مستقلة عما قبلها في الفهم، ويمكن أن يعد مضمون الأبيات قصراً مستقلاً، ولا يمكن الانتقال إليه طفرة أو اقتضابًا كما صنع في

تحوله من بكاء الديار إلى الغزل، حيث إن تشبيه الريق بالخمر يلطف هذا الانتقال، ويكفي للربط بين الموضوعين، ولكننا مع ذلك نرجح أن هذا الوصف لم يكن مقصوداً لذاته، وأن الشاعر أراد أن يستكمل به الصورة التي رسمها لريق محبوبته (شعثاء)، ورأن يضيف إليها ما ذكر من محاسن الخمر وآثارها النفسية. وقد يعده بعض النقاد استطراداً، وهو في الحقيقة ليس كذلك، وإنما هو اتباع لمذهب شعري مألوف لدى القدماء. يلجأ الشاعر إليه برغبته في تدقيق الوصف لما يصفه وإبراز ما يخفى من دقائقه، فيعمد إلى تشبيهه بشيء أعرف منه. ثم يسترسل في أوصاف المشبه به، وتبيان تفاصيله لينقلها إلى المشبه ومن الممكن أن يسلك ذلك في باب ما سماه علماء البديع «التتميم» لولا أنهم ضيقوا نطاقه، وجعلوه في حدود البيت الواحد ولولا أن بعض الشعراء قد يطيل في هذا الاسترسال ويبدو حديثه عن المشبه به وكونه غرض أصيل. هذا هو القسم الأول من القصيدة وقد أومأنا آنفًا إلى أنه جاهلي، وهو في الحقيقة مثبوت الصلة ببقية أبيات القصيدة، ولا يمثل شعر (حسان) الإسلامي لما عرف عن خلقه وسيرته بعد دخوله في ذلك. أما القسم الثاني من القصيدة فموضوعه تهديد قريش ويقع في أحد عشر بيتا وقد مهد الشاعر لهذا التهديد بتأكيد لا يدع مجالا لريبة في وقوعه، فهو يدعو على نفسه وقومه بالخور والذلة إن لم ينجزوه، وزن ذلك الغزو الذي هددهم به حسان نبأهم بأنه سيكون غزواً عنيفًا بجيش عرمرم يثير النقع بكثرة عدده، وقوة اندفاعه، وستنطلق به الخيل من طريق [كداء]

وتنصب في سرعة متصاعدة، كأنها تسابق ما لا يسبق ويعني أسنة الرماح المصطجعة على أكتافها، وتلك الخيل تحمل فرسانا هم أشد ما يكونوا حرصًا على اللقاء، يتحرقون شوقًا إلى الفتك بالأعداء، وكأنما فاض هذا المعنى على رماحهم فبدت متعطشة إلى الدماء، وتستمر الخيل في سرعتها، لا تصدها مقاومة ولا يقف في طريقها أحد حتى تدخل مكة فلا تجد غير نسوة ملأ قلوبهن الفزع وأحاط بهن الذعر والهلع، وانعكس ذلك على تصرفهن، حتى كشفن الرءوس وأخذن بلطمن الخيل بالخمر. ثم يعرض الشاعر على قريش أن ينأوا بأنفسهم عن هذا الشعر ويخلو السبيل ويمكنوا رسول الله ﷺ من دخول مكة، وتأدية العمرة ليتحقق بذلك وعد الله، ويكون ذلك سلمًا. فإن أبيتم السلام وأخذتكم العزة والإثم فانتظروا يوم الانتقام، يوم يتحقق هذا الوعيد بمقارعة الأسياف، ويومذاك يتحقق النصر لجند محمد ﷺ وتكون لهم الغلبة والعزة التي يكتبها الحق تبارك وتعالى لمن شاء أن يعزه، وهي بلا ريب للمسلمين. والنبي ﷺ والمسلمون هم المنتصرون؛ لأنهم يستمدون العون من الله، وذلك بصحبة جبريل عليه السلام وهو أمين الله، وروح قدسه، والقوة الخارقة القاهرة التي لا نظير لها في صفوف الكافرين. وحيث إنهم أهل إيمان قوي، وعقيدة راسخة، فقد اختبر الله خلقه حين أرسل نبيه ﷺ بدعوة الحق، فنفعهم الابتلاء فصدقوه وآمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وعمرت قلوبهم باليقين، وعميت قلوب الكفارين المعاندين وبذلك أمعنوا في الغي والضلال والعناد والمكابرة، وحيث

إن الأنصار منهم وهم جند الله الذين أعدهم لإعلاء كلمته، وهم أصحاب الهمم العوالي، والعزائم القوية، والقلوب الثابتة في خوض المعارك، وهم الذين تأصلت العداوة بينهم وبين العدنانيين، وقريش منهم ومارسوا حربهم أزمانًا طوالاً، وكان النصر فيها حليفهم فقد حاربوهم باللسان فأدبوهم بأشعارهم، ووجهوا ذلك لكل من تعرض لهم بالهجاء، وحاربوهم بالسلاح فما وهنوا عن الضرب حين يحتدم العراك، ويحمي وطيس المعركة، ويشتعل أوارها، وتختلط الدماء.

تلك هي الأفكار التي انتظمها القسم الثاني من قصيدة الشاعر «حسان بن ثابت» رضي الله عنه، وقد سلكها في ثلاث حلقات هي:

أولا: تصور العمل الانتقامي الذي يهدد قريشًا به.

ثانيًا: تعرض حلا للموقف، إن رضيه المشركون، كفوا أنفسهم شر الانتقام.

ثالثًا: توضح وسائل القوة التي تكفل إنجاز هذا العمل، وتضمن النصر للجيش الإسلامي.

وقد راعى الشاعر في ترتيب هذه الحلقات، وترتيب أفكارها والتركيز على بعضها دون بعض، مقتضيات الموقف، وما يكتنفه من ملابسات.. فالبدء بحديث الانتقام، وتأكيده بما ينبىء عن العزم والتصميم وتصويره بهذه الصورة الرهيبة المرعبة التي تنخلع لها القلوب، وهذه الأمور اقتضتها الثورة النفسية للشاعر، فقد كان حسان يومذاك مشحون النفس بالغيظ والغضب، وطبيعة الإنسان في مثل هذه الأحوال تدفعه إلى محاولة التنفيس من ثورته والتماس ما يخفف عن

نفسه بأى لون من الألوان، فإن لم يستطع ذلك بعمل ينهض به فلا أقل من أن يكون بالكلمة المعبرة عن خوالج النفس، وخواطر الذهن وذلك ما فعله الشاعر، حيث استجاب لفطرته حينما جعل صدارة الأبيات لحديث الانتقام وأعطاه الصورة المرعبة المهولة المروعة ليكافىء بذلك ما يختلج في نفسه من ثورة عارمة، وغضبة ضارية.

وقد كان ميزان القوة بين الفريقين غير متكافىء، فزمام المبادأة في يد المشركين وهم مستعدون لحرب خاطفة، والمسلمون تكتنفهم دهشة المفاجأة وهم عزل من كل سلاح عدا سلاح الإيمان الذي يغمر قلوبهم والعقيدة الراسخة التي تثبت أقدامهم، فكان على الشاعر حينذاك أن يبادر بما ينهض بعزائم المسلمين ويشد من أزرهم ويعوض مشاعرهم مما تحس به من نقص في ميزان القوة المادية، محاولاً إرهاب المشركين وذلك بتهديده لهم. والحل الذي عرضه الشاعر لإنهاء الخلاف لم يأخذ من جهده غير بيت واحد، وكان بمقدوره أن يطيل ويذكر ما يعرف ما مزايا السلام، ولكن الشاعر لم يفعل فهو في الحقيقة يريد استسلام قريش تحت رعدة من التهديد، ولذلك مر الشاعر بهذا الغرض مرًّ الكرام، وعاد إلى ما كان فيه من تهديد ليبين الأسباب والقوى التي يعتمد عليها المسلمون في إنجاز ما كان فيه من تهديد ليبين الأسباب والقوى التي يعتمد عليها المسلمون في إنجاز ما وعدوهم به من نصر مؤزر مبين عليهم، وتلك القوى التي عرضها حسان تنتظم أمرين:

الأمر الأول: القوة الروحية، المتمثلة في عزة الله وجلاله وصحبة

جبريل عليه السلام للمسلمين، ثم الإيمان الذي يعمر قلوبهم، وتمتلىء به أفئدتهم.

الأمر الثاني: القوة المادية، التي قوامها الأنصار الذين هم صُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء.

ونرى الشاعر يقدم القوة الروحية على القوة المادية ليدخل بذل الطمأنينة في قلوب المسلمين، ويذكرهم بهذه الإمدادات الروحية التي تصحبهم في كل موقع، وتكفل النصر لهم مع قلة العدد والعُدد، وبها يتحقق لهم النصر على الجموع المحتشدة والتي تفوقهم عدداً وعتاداً من المشركين، ويوحى في الوقت نفسه بأن القوة المادية أمر ثانوي، لا أثر له إلا بوجود القوة الروحية، ومع ذلك فإن الشاعر لم يقصر في تفخيم القوة المادية للمسلمين، فقد ذكر من أوصاف الأنصار ما يجعل لهذه القوة وزنًا راجحًا لدى الكافرين.

والقسم الثالث: من القصيدة يضم بقيتها، والأبيات وموضوعها يختلفان باختلاف الروايات، فهي على رواية (ابن هشام) ثمانية أبيات في هجاء أبي سفيان بن الحارث، وتقريع قريش على احتضانها له ولأمثاله ممن يهجون محمداً ﷺ. وفي رواية ديوان الشاعر أحد عشر بيتًا، تضم إلى ما سبق تهديداً جديداً لقريش بزيادة ثلاثة أبيات قبل الأخير، وقد استهل الهجاء بخطاب عام وجهه إلى كل من يستطيع التبليغ ليحمل عنه رسالة بما تكشف من حقيقة أبي سفيان، وينتقل بها من مكان إلى آخر حتى يصل إليه ذلك الهجاء فيواجهه بأن أسياف

المسلمين قد دمغته بعار الجبن والذلة حين فر منها في وقعة بدر الكبرى، وأنها كشفت خور وجبن عصابته من المشركين بما نالت من أبطالها في معركة «أحد» حيث سقط اللواء، إلى أن حمته النساء. وأنك يا أبا سفيان لم تنل من هجوك لمحمد عليه السلام ما أردت، فقد انبريت لك، وأبطلت هجاءك، وحسابي وحسابك عند الله، وما كان ينبغي أن تنتظر نجاحا في هذا الهجاء، فقد كان ذلك حمقًا وجهلاً منك حيث اقتحمت ميدانًا لست من فرسانه، وهجوت من لا توزن به قدراً وشرفًا، وعظمة واحترامًا، ومهابة وإجلالاً، فهو يسمو عليك سمو الخير على الشر، فلتذهب نفسك الشريرة فداءً وثمنًا لدفع السوء عن محمد ﷺ، وما كان ينبغي لك أن تخدعك حماقتك، وتتوهم أنك ستنال من عظمة محمد عليه السلام المشمول ببركة الله، كثير البر والخير، مائل عن الغواية والضلال، إلى الاستقامة والهداية، فهو أمين على رسالة ربه، مجبول على الوفاء. ثم يتجه الشاعر إلى تقريع قريش قائلا لهم: إنكم ملومون على سفاهتكم، فما كان يليق بكم أن تسووا هاجي محمد وحاذله، بمادحه وناصره، مع أنه منكم، وشرفه شرفكم وفخره فخر لكم، فإنكم حمقى وسفهاء. إن كان هذا هو موقفكم منه عليه السلام، فقد جعلت نفسي درعًا بينه وبينكم، وجعلت أبي ووالده، وعرضي لعرض محمد منكم وقاء. وإني لقمين بتأديب سفهائكم، حيث لساني قارص الهجاء، يشبه في إيلامه تمزيق من يناله سيف بتار، وشاعريتي غير محدودة الطاقة، فهي كالبحر البعيد الغور، الذي لا ينفد ماؤه، ولا يكدره نزح الدلاء.

ذلك ما تضمنه القسم الأخير من القصيدة كما رواه ابن هشام وقد تصرف فيه الشاعر تصرفًا بارعًا، حيث بدأ بإعلان الحرب على أبي سفيان موسعًا دائرة التشهير به، لينشر مخاذيه ويذيعها على كل لسان، وحتى تسير بها الركبان، وهو تمهيد مناسب، فيه مرارة، وقسوة تؤلم أبا سفيان، ويفتق الأذهان إلى ما يزتي من تفاصيل هجوه، وفي ذلك الأمر تجلت براعة الشاعر، حيث اكتفى حسان بذكر جوانب معينة من شخصية أبي سفيان، مع تسليط الأضواء على ما فيها من عوار، وأنه لم يختلف ولم يسرف فيما عرض له من عورات، وقد اقتصر الشاعر على هذه الجوانب دون غيرها، لأنه أمام هدف معين، وحقه أن يختار من المعاني ما يناسب هذا الهدف ويوصل إليه، وهو لا يهجو أبا سفيان بوصفه شخصًا عاديًا، بل إنه يهجوه في شخصية المعادي لرسول الله ﷺ فواجبه أن ينظر في الصفات التي تؤلف عناصر هذه الشخصية، فإذا استطاع أن يبطلها فقد هدم هذه الشخصية وحطمها، وهذا ما فعله حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ فقد كان لأبي سفيان في عداوة محمد عليه السلام صفتان: فهو مقاتل لا تفوته معركة في حرب محمد بالسلاح، وهو شاعر لا يكف لسانه عن نباح النبي والمسلمين، ولهذا اكتفى حسان بهاتين الصفتين وأنفذ فيهما طعناته حتى قضى عليه بصفته محاربًا في بيت واحد، واستغل فيه حقيقة لا يستطيع إنكارها، وهي الجبن الذي ألصق به ذلة، وأى خسيسة تهدم المحارب غير ما يسجل عليه من خزي الجبن وعار الفرار؟!! ثم قضى عليه شاعراً بحقيقة أخرى أخذها حسان من الواقع وهي عجز

أبي سفيان عن أن يؤثر في مقام محمد بهجائه، ثم وضح الشاعر هذه الحقيقة معللاً السر في فشل أبي سفيان وعجزه في النيل من مقامه عليه السلام محاولة أبي سفيان ما لا طاقة له به، فهو في الحضيض، وأنى له أن يمسَّ السماء السامية، وكيف يؤثر بهجائه وغثاء كلامه في من تجمعت له كل أسباب العظمة، وتأنيب قريش ليس غريبًا عن هجاء أبي سفيان، لأنه يهجوه على عمل يعد سكوتهم عليه سفهًا يستحق اللوم والتقريع، فهو مبني عليه ومكمل له والانتقال بينهما لا بعد فيه، بل لعل الشاعر يقصد من توبيخ قريش أن يدبر وقيعة لأبي سفيان ويؤلب عليه قومه. فهو يذكرهم بأن محمد منهم، ونجاحه نجاحهم، وفخره فخر لهم، وانتصاره انتصار لهم، ثم يقرعهم على احتضان أعدائه، وتخليهم عنه. ونرى الشاعر لا يكتفي بالتقريع والتنديد في تأديب قريش على موقفهم آنف الذكر، ولذلك نراه يهددهم بأنه مصمم على الدفاع عن محمد، والانتقام منهم، مبينًا سلاحه الذي سيخوض به المعركة ضدهم، وهو الهجاء الذي يمزق الأعصاب، ويقضي على الشرف، ثم شاعريته التي لا يلحقها وهن، ولا يعتريها الفتور.

أما الأبيات الثلاثة التي زادتها رواية الديوان، وهي من البيت التاسع والعشرين إلى البيت الواحد والثلاثين، فإنها تضيف التهديد بالسلاح قبل التهديد والهجاء، حيث يقول فيها:

إن لقيت قريش بني خزيمة عرفت منهم مصاير أعدائنا، فما شفى غيظ قلوبنا منهم، إلا سفكنا لدمائهم، لأنهم أعانوا على مناوئتنا،

فبطشنا بهم بطش الأسد، وبذلك تخلصنا منهم، وممن التف حولهم، وكذلك تخلصنا منهم، وممن التف حولهم، وكذلك تخلصنا من جموع قريظة واشتفينا منهم، وتهديد الشاعر لهم بهذه الأبيات لا يعد مكروراً مع تهديد بالفتح، فهو هناك يتوعدهم بغزو مكة لأنهم يمنعون النبي وصحابته من دخولها، وهنا يتهددهم بالانتقام على مناصرة من يعاديه ﷺ، والتهديد هناك مباشر وصريح، بيد أن التهديد هنا جاء بطريق التعريض، وهو بهذا أعمق أثراً، وأشد تخويفاً من التصريح به؛ لأنه يخرجه من دائرة القول المحتمل للتنفيذ وعدمه، ويقدمه ومعه من الواقع شواهد صدقه والجد فيه.

وعلى أية حال فإن الشاعر قد صكّ أسماع المشركين في خاتمة أبياته الإسلامية بمثل ما قرعها به في مطلعها من الوعيد والتهديد، والقصيدة قد حققت غرضها كما أنها أبانت حظ حسان من المهارة وسمو الفن الشعري، بيد أنه قصر في تشخيص موقف قريش الذي لامهم عليهم وذلك في قوله:

أمن يهجو رسول الله منكم

ويمدحه وينصره سواء

وذلك لأن ما يتهمهم به في البيت هو التسوية في من يهجو محمداً ومن يمدحه وينصره، ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا من نصر محمد وخذلانه في موقف محايد، أو إن شئت فقل هو عدم المبالاة . وهذا التحديد غير دقيق ولم يصب المحز والصواب أنهم كانوا يقربون من

يهجو محمداً، ويدنونه من مجالسهم، ويجعلونه حليفاً لهم، ويحاربون من يمدحه، ويتخذونه عدواً لدوداً لهم، ولو أن الشاعر أظهر هذه الحقيقة، وأولاها عصره الإسلامي، لكان دقيقاً في تحديد موقفهم وكشف سوءته، ولكان ذلك أدل على استحقاقهم التوبيخ والتقريع إلا إذا قيل: لقد كانت غايته التي يحتاجها ويسعى التي يقصدها ولكن العبارة لم تسعفه أو يحمل كلام الشاعر على أنه يعيبهم على الأمر الهين اليسير وهو عدم المبالاة فالأولى أن يكون قد لامهم على ما هو أشد من ذلك وأنكى، وهو الانحياز والانعطاف إلى أعداء محمد ﷺ ولكن هذه الاحتمالات جميعاً من المعاذير التي لا تقتضيها الحقائق الأدبية.

تأثر القصيدة بعصرها وتفاعلها بقضايا المجتمع

إذا عاودنا قراءة القصيدة بأناة وبنظر ثاقب وجدناها تحمل بعض الملامح القوية للعصر الذي قيلت فيه هذه الأبيات، كما أنها تدل دلالة جلية على تأثر الشاعر بالروح السائدة في هذا العصر، حيث إن القصيدة لم تنس الوقائع والأحداث التاريخية التي مرت بحسان بن ثابت، حيث كانت حاضرة في ذهنه، وقد أومأ إلى بعض جوانب هذه الأحداث ليستغلها بمهارة في تحقيق غرضه من القصيدة فأومأ إلى موقعتي [بدر الكبرى، وغزوة أحد] ويهجو أبا سفيان ليسجل عليه ما وصم به من خزي وعار حيث لاذ بالفرار من المعركة لينجو برقبته، كما ذكر يومي [بني المصطلق، وقريظة] ليرهب قريشاً ويذكرهم بما لاقوا من شدة النكال، وعذاب النفس، والهزيمة النكراء وحسن بلاء

المسلمين في هذه المواقع جميعها، والشاعر يعطي لنا صورة صادقة لما أومأنا إليه آنفًا من استبسال الجيش الإسلامي، وصدق عزيمة المسلمين في خوض الحروب الدائرة بينهم وبين المشركين، والصور التي رسمها الشاعر تهديداً لقريش، متنبئًا بفتح مكة لم ينتزع عناصرها من الخيال، بل قبسها من الواقع، واستمدها من السوابق الحربية للمسلمين، وهذه العناصر المقبوسة من الواقع هي التي أكسبت نبوءة حسان في تبشيره رسول الله ﷺ بفتح مكة، وأنه سيدخلها من طريق كداء، ولذلك يروى أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة من كداء قال لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ : أنشدني بعض أبيات حسان ويعني عدمنا خيلنا إن لم تروها.. كما جعلت القصيدة تجيء مطابقة لما جرت به الأحداث يوم الفتح، وكأن فرسان المسلمين الذين قادهم [الزبير بن العوام] ـ رضي الله عنه ـ ودخلوا مكة من كداء كانوا يقومون ببيان عملي يشرحون به أبيات حسان، فتذكرها النبي ﷺ وطلب من أبي بكر إنشادها له، وهي أيضًا تعبر عن تأصل الجانب الروحي في قلوب المسلمين، وتؤكد يقتهم من نصر الله لهم، واعتقادهم الذي لا يخالجه ريب في أنهم لا يقاتلون المشركين وحدهم، بل إن الله معهم بتثبيته لهم، ونصره إياهم، وقد عد القرآن الكريم التثبيت من عوامل النصر للمؤمنين، وسماه القرآن «روحًا» والمقصود بالروح في الآية الكريمة [التثبيت] قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾(١).

(١) سورة المجادلة آية رقم :٢.

فالمسلمون لا يخوضون هذه المعارك بقوتهم المادية فحسب، وإنما يخوضونها بالجانب العقدي. تساندهم القوة الربانية العليا من عزة الله لهم، ومصاحبة جبريل ـ عليه السلام ـ والملائكة التي تقاتل بين صفوفهم، كما حدث في غزوة بدر الكبرى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾(١).

كما أن القصيدة تنبىء عن تبدل القيم الخلقية، والمثل الإنسانية في نظر المسلمين، ويتجلى ذلك في الأوصاف التي ذكرها الشاعر، وجعلها عنوانا لعظمة النبي ﷺ، فهي معان جديدة، وقيم لم يكن يعرفها العرب في مجتمعهم الجاهلي ولا شعراؤهم، فلما سطعت شمس الإسلام رفع منارها لهم، وصارت من المقاييس التي تقاس بها أقدار الرجال، وهي أيضًا تشير إلى اتجاه الشعراء نحو القرآن ليقبسوا من أساليبه، وينسجوا على منوالها في ألفاظهم وتعبيراتهم. والدليل على ذلك أسلوب حسان بن ثابت في البيت الذي يهدد به قريشًا وينذرها بالفتح إن لم يخلوا طريق المسلمين إلى مكة وهو:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

والبيت الآخر الذي يوبخهم فيه على موقفهم من النبي ﷺ،فهو ينظر فيهما إلى قول الله سبحانه «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»، وهو من الأساليب القرآنية التي ذكر العلماء أنه لم يسبق إليها، وهو لون من ألوان البلاغية التي تسمى لدى علماء البلاغة بـ [تجاهل العارف]، ومرماه البلاغي هو:

(١) سورة الأنفال ، آية رقم ١٢.

«التهكم، السخرية، والاستهزاء». ويمكن أن يكون مرماه وهدفه التنبيه على أمر مهم، وهو «فإما تعرضوا عنا سنعتمر ونحقق هدفنا وهو فتح مكة المكرمة».

ولقد كان لهذه القصيدة وقع كبير في نفوس المسلمين، وفي نفسية رسول الله ﷺ، وبقي أثرها محتفظًا بجماله، وعظيم أثره في قلب النبي عليه السلام ونفوس الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى أن مات حسان، وليس أدل على ذلك من طلب رسول الله لأبي بكر أن ينشدها له حينما رأى سرح العمليات الحربية يشرح القصيدة، ومن طيب أثرها في نفوس المسلمين أنزلت حسان منزلة سامقة لدى النبي والمسلمين وكبار الصحابة الأجلاء، حتى إنها شفعت له في مواقف كثيرة، وخلصته من محرجات كان حسان قد تورط فيها كحادثة الإفك الشهيرة، ولقد غضب عليه الرسول مرة، وهم بعاقبة فاسترضاه حسان بقوله: يا رسول الله بأبي أنت وأمي: احفظ قولي:

هجوت محمدًا فأجبت عنه   وعند الله في ذاك الجزاء

فعفا عنه، ووهبه «سيرين» أخت مارية القبطية، وهذا تكريم ما بعده تكريم لحسان بن ثابت حيث جعله النبي عديلا له في المصاهرة، وسامحته وعفت عنه السيدة الفضلى (عائشة بنت أبي بكر) ـ رضي الله عنها ـ اشتراكه في حادث الإفك وضعت الناس أن يذكروه بسوء حين مرت جنازته عليها، وكان حسان قد اعتذر لها بقوله:

حصان رزان ما تُزن بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

جليلة خير الناس دينا ومنصبًا في نبي الهُدى والمكرمات الفواضل(١).

عقيلة حي من لؤي بن غالب
كرام المساعي، مجدها غير زائل

مهذبةٌ قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل سوء وباطل

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم
فلا رفعت سوطي إلى اناملي

وإن الذي قد قيل ليس بلائط
بها الدهر بل قول امرىء في ماحل

فكيف وودي ما حييتُ ونصرتي
لآل نبي الله زين المحافل

له رتب عالٍ على الناس كلهم
تقاصر عنه سورة المتطاول

رايتك وليغفر لك الله حرةً
من المحصنات غير ذات غوائل

ولما بلغ قوله: وتصبح غرثى من لحوم القوافل.

(١) الديوان ص ١٨٨.

قالت عائشة - رضي الله عنها - لكنك يا حسان ما تصبح غرثان من لحومهن.

الحصان. العفيفة. الرزان. ذات الثبات والوقار والعفاف تزن - تتهم - غرثى - جائعة - الغوافل: مفردها: غافلة. أى أنها لا ترتع في أعراض الناس. العقيلة: السيدة الكريمة. الخيم الأصل - لائط - لازق - الماحل من محل به إلى الأمير أى سعي به وكاده وأقرى عليه القول. رتبٌ. ما أشرف من الأرض وهي استعارة المجد والشرف. سورة. وثبة. الغوافل. غافلة وهي الفساد والشر.

ولهذه القصيدة أيضًا كان ابن عباس - رضي الله عنهما - يدافع عنه، ويحجز ألسن الناس عن الخوض فيه.

والسر في أن القصيدة كان لها ذلك الأثر الجميل في أنفس المسلمين جميعا وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ: صدق القصيدة فيما تنبأت به من فتح مكة، وأنها قيلت في وقت عصيب، كان للمفاجأة فيه أثر سيء، والمسلمون حينذاك في سبيس الحاجة إلى ما يشد عزائمهم، ويقوي هممهم، ويثبتهم أمام الأعداء، ويذهب عنهم هول المفاجأة، فالقصيدة جاءت بمناسبة أحداث الحديبية، والمسلمون كانوا قد فارقوا المدينة، قاصدين مكة لغاية دينية، لم يتوقعوا الاشتباك في حرب عسكرية، فخرجوا مسالمين، يرتدون ملابس الإحرام ويسوقون الهدى مصطحبين كل من أراد زيارة البيت من القبائل التي لم تدخل في الإسلام ولكن المشركين فاجأوهم بالتصدي لهم، وقطع

الطريق عليهم، ومنعهم من الطواف بالبيت، وجرت السفارة بين الفيرقين مقترنة بالشائعات التي شاعت بمقتل عثمان - رضي الله عنه - وكان سفير النبي لدى القريشيين، وبذلك أصبح المسلمون في موقف لا يحسدون عليه، فتأزم المشكلة قد يجرهم إلى حرب لم يتوقعوها، وليس هناك إعداد لها، وقد ثارت النفوس وغلبت غلية المرجل، وهنا تجيء أبيات حسان بن ثابت دواء ناجعًا، وبلسمًا شافيًا، للنفوس المضطربة، والقلوب المعذبة، فكانت الأبيات طاقة أمدت بفوحها أنفاس الأمل لدى المسلمين، وباقة جددت بنفحها أسباب الرجاء في نجاة المؤمنين، لما ذكرتهم به من أنهم على الحق، وتصاحبهم القوة السماوية التي لا يمكن أن تتخلى عنهم أو أن تفارقهم، وأن تدارك الأمر من الممكنات، فإن لم يكن بالسلم فليكن بالحرب، والإعداد لغزو مكة والانتقام من طغاتها بالأسياف البتارة، وبذلك جاءت القصيدة كما أومأنا آنفًا بلسمًا شافيا لا ينسى أثره حيث جاء فتح مكة، وصدق حسان في نبوءته، وزاد أثر القصيدة عمقًا في قلوب المسلمين، ونقشت في قلوبهم نقشًا لا ينمحي أثره، ولا تزول عذوبته.

القيمة الفنية للقصيدة:

لوحظ على حسان بن ثابت - رضي الله عنه - في قصيدته آنفة الذكر، انتقاله المقتضب من بكاء الديار إلى الغزل، ثم تقصيره في تشخيص الجريمة التي قرع قريشا بسببها، ما عدا ذلك لنا من حسن تصرفه في المعاني والأفكار، وأيضًا من وضوح العبارة، ودقته في

نادية المراد، والذي يبدو في أفكاره ومعانيه أن الشاعر أحسن استغلالها، واختيارها، فهو لا يشغل نفسه بكل المعاني التي تتصل بموضوع معين اتصالا قويًا أو ضعيفًا، وإنما يضعها في ميزان الاختيار، وينتقي أقواها ارتباطًا بموضوعه، وقد يكون قليلاً، ثم يتصرف في هذا القليل المختار تصرف ماهرًا يوضح غرضه، ويغنيه عن إطالة القول بما ترك من معان، مثال ذلك: الغزل في أبياته الجاهلية، فقد اكتفى في الأبيات بالطيف والريق، وبشاعريته الفذة، وامتلاكه أدوات الشاعر الماهر استطاع أن يضمن هذه الأبيات القليلة الكثير، مما يحكى عن تمكن الحب من شغاف القلب وكذلك صنيعه في هجاء (أبي سفيان بن الحارث) في أبياته الإسلامية، فقد ترك الشاعر الكثير من معاني الهجاء التي كان في مكنته أن يجرح بها أبا سفيان ويسيء إليه، واكتفى بمعان معينة ـ مع قلتها ـ مكنته من هدمه والقضاء عليه، ومعرفته بوجوه التصرف الواعي في المعاني والأفكار نراه قد اكتفى بذكر الحقائق المجردة دون مبالغة أو تهويل، وبذلك كان لها أجمل وقع، وأبلغ تأثير، يتضح لنا ذلك في هجائه لأبي سفيان، حيث استطاع أن يدهم فيه شخصية المحارب بإيماءة بارعة إلى إحدى الحقائق الثابتة، والتي لا يستطيع أبو سفيان إنكارها، أو التملص منها وهي فراره من أسياف المسلمين في وقعة بدر الكبرى، وبتلك الإشارة سجل عليه عاد الخور والجبن، مستغنيا عن كل ما يقال بعد ذلك من عيوب تجرح الرجل من عداد أهل الحرب.

الأفكار التي حوتها القصيدة:

والأفكار التي حوتها القصيدة، ودارت في فلكها أنها جاءت محكمة الترتيب والتنسيق، فلا يتقدم بعضها على بعض، إلا بحسب ما يقتضيه التسلسل الذهني، والسابق فيها يسلمنا إلى اللاحق، ويجيء كل منها عقيب الآخر، فهو يتطلبه ويقتضيه، ونتيجة ذلك أنه ظهر في أبيات كل موضوع من التسلسل والترابط ما يفسده التقديم أو التأخير، وعبارة القصيدة فيها من الوضوح والسلاسة، والنصوع والعذوبة ما لا يحتاج إلى برهان، كما أن فيها من الدقة والإحكام ما أكسبها قوة في الأداء، ودقة فائقة على إبراز المعاني بكل خصائصها، والوصول بها إلى الغاية التي يتغياها دون حاجة إلى إعادة العرض بصورة أخرى، أو الاستعانة على تجلية المعنى بعبارة تالية، والمتأمل في أبيات القصيدة لا يجد فيها معنى واحدًا مكرورًا، ولا يجد أيضًا عبارتين تعاونتا على معنى واحد، فهو يؤدي المعنى واضحًا من أول وهلة، فلا يحتاج إلى إطالة أو تكرار. ومما أعانه على ذلك براعته في العرض، ومهارته في استغلال الوسائل البيانية، وإحكام صنعه لها، ولا يغض من شأن القصيدة أن جاء أكثرها من الصور الجزئية اليسيرة التي تتجلى في مظهر من التشبيه، أو المجاز المفرد، أو الكناية فقد أغنت كل واحدة من هذه في مكانها ما لا تعنيه العبارات المطولة، كما أنها أبرزت المعنى الجزئي الذي تعبرعنه في صورة دقيقة موحية بكثرة كاثرة من الأحاسيس والانفعالات وتؤثر بذلك في محيط المعنى العام، وحسبه دليلاً على براعته في التصوير تلك الصور الرائعة التي رسم فيها الغزو

المروع، وما أعد له من فرسان، وسلاح وخيل، وما يجري فيه من اندفاع واستبسال وسرعة ومتابعة،وما يصحبه من رعب وهلع، وما ينتهي إليه من نهايات مروعة ينفطر لها القلب، ويذهل لها اللب وقد جاء ذلك في أبيات قليلة. ومن الدقائق الفنية في عبارة القصيدة ذلك الذي نشاهده من التوزيع في مسالك التعبير، ولا نعني من ذلك ما هو واضح من تلوين الأساليب بألوان من الجمل الخبرية والإنشائية، فذلك أمر سهل، وإن كان طيب الأثر في تنشيط السامع وإيقاظه، وإنما نقصد به ضربًا آخر من التلوين فيه دقة، ولا يستطاع ذلك إلا بحذق ومهارة، كما يتجلى ذلك في تنقل الشاعر بين التعبيرات المباشرة وغير المباشرة، فالمباشرة هي التي يواجهك فيها المتكلم بما يريد، وغير المباشرة هي التي لا يصارحك فيها بمقصوده، وإنما يلقي إليك من الكلام ما يوحي بهذا المقصود، معتمدًا في ذلك على ذكائك، وفطنتك، وهذا ما فعله حسان رضي الله عنه، فهو على حسن يسلك المسلك الأول في غير موطن من القصيدة، نجده يختار المسلك الآخر، وقد رأينا كيف استطاع بما ذكر من أحوال الديار المثيرة للوعة، وكوامن الشجن أن يجعلنا نشعر بحزنه عليها بل ويجعلنا نشاركه شجونه وأحزانه، دون مصارحة منه أنه حزين، أو يطلب منا إسعاده، كما رأيناه قد سلك في تهديده لقريش مسلك التعريض، حيث ذكرهم الشاعر بما حدث [لقريظة وجذيمة] دون أن يقول لهم (سنفعل بكم كذا، وسنصنع بكم كذا)، والقصيدة باستثناء المأخذين السابقين. تحمل من سمات البراعة، ودقة الصنعة ما يرجح كفتها في الميزان.

مكانة القصيدة من شعر حسان:

ووضع القصيدة من شعر حسان يقودنا إلى الحديث عن كل من شطريها على حدة، فالشطر الجاهلي يمثل شعر حسان قبل الإسلام، وقد كان فحلاً من فحول الجاهلية، وشعره في هذه الحقبة من أجود الشعر بشهادة (الأصمعي) وهو أشعر أهل القرى لدى (ابن سلام الجمحي) وطاقته القادرة المؤثرة هي التي حدت به إلى كثرة المفاخرة بلسانه كما وقع ذلك في شعره، دون معارضة من أحد أو إنكار عليه، وهي التي مكنته من خوض الأسواق والمحافل يزاحم كبار الشعراء، كما أن مدائحه الرائعة فتحت له أبواب ملوك غساسنة الشام، ومناذرة الحيرة، وقدمته أحيانًا في الجوائز على (الأعشى والنابغة)، وفخره وهجوه أكسبه التفوق والانتصار على مزاحميه ومنهم (قيس بن الخطيم) في الصراع القبلي بين الأوس والخزرج، ومن تلك الألوان التي تثبت تفوقه ومقدرته الشعرية صدر هذه القصيدة. أما بقية أبياتها، فهي بلا ريب من أروع ما قاله حسان في الإسلام، ومن أحفلها بسمات الشاعرية البارعة، إذا فما قيمة هذه القصيدة بالنسبة إلى شعره الجاهلي؟ قد جرى القول بين النقاد، ودارس أدب حسان على أن شعره في الجاهلية مستدلين علي ذلك أن حسان أدرك الإسلام في سن متقدمة، فضحت الشيخوخة الضعف والوهن في شعره، واضطرار، إلى الارتجال في الأغلب الأمم من مواقفه الإسلامية انحدر به عن مستواه الأسبق، ولم يمكنه من تشذيب شعره وتنقيحه، وأن انكفافه بخير الإسلام من غواية الجاهلية وشرورها أنزله دون منزلته، وأورثه

الضعف في شعره»؛ لأن الشعر يقوي في الشر، وهؤلاء يستدلون علي مقولتهم هذه بقول الأصمعي: (الشعر نكد، بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، ولان. هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره)، ثم ما نسب إلى حسان من أنه سئل عن ضعف شعره في الإسلام، فقال: (إن الإسلام يحجز عن الكذب، والشعر يزينه الكذب)، والواقع أن هذا الحكم غير مطرد على الرغم مما قدم لتبريره من علل وأسباب، لأنها أسباب وعلل يستحيل أن تطرد، ولا تثبت على التمحيص، وفي وسعنا أن ننقضها كلها أو على الأقل بعض هذه العلل وتلك الأسباب، فنستطيع أن نبطل التلازم بين ضعف الشعر مع كبر السن، فكم من شاعر لم يزده تقدم سنه إلا تكاملا ونضجًا في شعره، والدليل على ذلك النوابغ الذين لم يظهر نجمهم إلا بعد أن تقدمت بهم السن، ولذلك سموا بهذا الاسم ومنهم (النابغة الذبياني)، وكذلك أمير الشعراء (أحمد شوقي)، أما معارضتنا لمقولة بعض النقاد أن من أسباب ضعف شعر حسان (الارتجال)، حيث إن الارتجال لا يعوق الشاعر عن الإجادة ما دام منفعلاً بالموقف الذي تهيأ للإنشاد فيه ودليلنا على ذلك الشاعر نفسه، حيث إن له قصائد ومقطوعات مرتجلة، ومع ذلك لم يتخونه التوفيق فيها، ولم يلحقها وهن ولا فتور، والدليل على ذلك قصيدته التي بين أيدينا. أما قضية الخير والشر، فهي قضية خاسرة، فليس معقولاً ولا مقبولاً أن تكون القوة والنجاح فيه مقصوراً على موضوعات معينة، ويكون السقوط والضعف حليفين لموضوعات أخر، ولو سلمنا بهذا الرأي؛ لأصبح لزامًا علينا أن نشطر نتاج كل شاعر بحسب موضوعاته وتنوعها بين الشر والخير إلى شطرين: شطر قوي، وشطر ضعيف.

ولا ينتفي أن يكنن للخير شاعر مبرز ولا نمحي من سجل الخالدين أولئك الشعراء الذين لم يفتحوا للشر بابا في أشعارهم، ولبطلت حقيقة ثابتة يعلمها كل البشر من أمر حسان، فمن المسلمات أنه ظفر بخصومه في الإسلام وأخرس ألسنهتم، كما انتصر على أعدائه في الجاهلية بقوة الشاعرية، وكان في الإسلام بضعفها مع الصدق.؟ إننا بذلك نقول قولا عجبًا. ولا ننكر أن يكون دعاء النبي ﷺ له، ووعده إياه بتأييده روح القدس، كانا من أهم أسباب نجاحه وظفره، وانتصاره على خصومه، ونؤمن بأنه كان تأييدًا بالتفوق الفني وقوة الشاعرية، وذلك أتاه من أن الدعاء، ووعده بالنصر على خصومه ملأ نفسه بالثقة، فخاض المعارك ضد الأعداء قوي الروح، وسيطر على الميدان بنفس تملأها الطمأنينة، وذهن متقد يقظان، كذلك كانت استجابة الله سبحانه لدعاء نبيه ـ عليه السلام ـ لحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ توفيقًا له يبصره بأسباب القوة، ويهديه سبل التأثير، فيودع ذلك شعره، والقصة التي سئل فيها الشاعر وأجاب عرضة للطعن والتجريح، فكيف يجيب هذا الجواب الذي يجعل الكذب عماد الشاعرية الحقيقية؟ ليس بمعقول أن يكون هذا جواب (حسان بن ثابت) لأنه يناقض مذهبه في الشعر، فهو يدين بمذهب الصدق، ويسجل ذلك في قوله الذائع:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه

على المجالس إن كيسا وإن حمقا[1]

(١) الديوان ص ١٦٩. الكيس. العقل والظرف والفطنة. الحمق . الجهل.

وإن اشعر الشعر بيت انت قائله

بيت يقال إذا انشدته صدقا

ومع ذلك فإن اصطباغ هذا الحكم بصبغة الشمول مما يضيع قيمته في نظرنا، فليس في أحكام النقد الأدبي أدنى إلي التخليط والخطأ، وأنأى من الدقة والصواب، من حكم عام يرسله صاحبه، بدون احتياط أو استثناء، والحكم العادل الدقيق في تقويم الآثار الأدبية هو الذي يؤخذ من داخل الأثر نفسه، ويبني على ما فيه من جهة فتى لصاحبه، ويقاس بما تضمنته أبياته من وجوه البناء الصحيح، وما تحقق به أوضاع من أهدافه وغاياته، بغض النظر عن قدم زمانه أو حداثته، ذينكم هو الطريق السوي في نقد الآثار الأدبية، وهو ما يجب أن ينهج لدى تقويم شعر حسان في الجاهلية، وإذا كانوا قد حكموا لها بالقوة لأنها استكملت الوسائل الفنية، وحققت ما نيط بها من أغراض، فمنطق العدل يقتضينا أن نسوي بها كل ما استوفى هذه الأسباب من شعره الإسلامي وقد رأينا حال دراستنا للأبيات التي بين أيدينا أن حسان لم يقصر في بنائها الفني، وأنه لم ينقطع بها دون الغاية التي رصدها لها، وهي (الإرهاب بالتهديد)، والهجاء والتحطيم.. فهل نحرم الأبيات ما استحقته من وصف القوة، ثم ندمغها بالسقوط والضعف لأن الأبيات قالها بعد إسلامه؟. لا يمكن بالطبع أن نغمطها حقها، لمجرد أن الأبيات قالها حسان بعد إسلامه.

شعر حسان الإسلامي في الميزان:

نسب إلى حسان شعر إسلامي كثير، نبه النقاد إلى ما فيه من شعر منحول وضعه القصاص، وحملوه عليه، وقد ورد ذلك في كتب السير وبعض المصادر الأدبية، وهذا الشعر لا نستطيع نأخذ به الشاعر، فلا نحكم له بجودته، ولا نأخذ عليه رداءته، فالشعر الذي يصطبغ بصبغة حسان، ونجد طابعه فيه يكون ذلك من شعره، وما عاداه فهو منفي عنه، دون توسع في دعوى الانتحال بخداع من ظاهره، ونستبعد من شعره ما يصح استغلاله في اتجاهات حزبية سياسية، فهذا منطق غير سديد، واتجاه مخدوع، فإن كان في تمجيد البطولة لبعض الصحابة أو في البكاء لما حل بهم، قيل إن أقوامهم صنعوه علي لسان حسان، وإن كان في هجاء بعض الأفراد والقبائل، قيل إن أعداءهم اختلقوه على لسان حسان، ليشهروا بهم، وهكذا إلى أن ينفد شعر حسان حيث إنه لا يخلو في أغلب مواقفه الإسلامية من أحد الاتجاهين، وما صح نسبته من أشعاره الإسلامية، فإن فيه القوى المحكم، وأيضًا تجد فيه الضعيف اللين. ويرجع ذلك إلى استعداده النفسي والموضوعات التي يتناولها، من حيث النوع والغرض، فإذا اضطر في متابعة الأحداث المتلاحقة أن يقول الشعر وهو فاتر النفس ضعيف النشاط فإنه حينئذ يضعف، لأن القريحة كليلة، أصابها الوهن والفتور. وجدير بالذكر هنا تلك الظاهرة الغريبة التي تتجلى بوضوح في شعر كل من عاصر الرسول عليه السلام من الشعراء، ومنهم حسان بن ثابت، أن شعرهم يجيء ضعيفًا في كل ما يتصل بشخص رسول الله ﷺ وبخاصة إذا

أفردوا القول فيه عن القول في جماعة المسلمين، فإن كل ما يقوله الشعراء من مدائح ومراث، لا يمكن أن يرتفع إلى مقام رسول الله السامي، ولا يدانيه،م ولعل ذلك كان بتدبير من حكمة الله حتى لا يقع في الأوهام أن أبواق الدعاية ـ بلغة العصر الحديث، وأجهزة الإعلام وأقواها حينئذ الشعر ـ كانت من أسباب عظمته، وعلو شأنه ﷺ، ولعل تهيب الشعراء من عضمته وجلاله له أثر على نفوسهم، فأوقعها في العجز، ولم يمكنها من إجادة القول فيه، أو لعل ينص الجلال والعظمة كان غامراً على مشاعرهم، فلم تستطع أن تدرك كنهها، ولا أن تستبين سرها، أو لعل ذلك راجع إلى أن رسول الله ﷺ كان لا يحب المديح، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحثو التراب في وجوه المداحين، وقد مدح بعض الصحابة أخا له في الإسلام أمام رسول الله ﷺ فقال له عليه السلام: (لقد قطعت عنق صاحبك)، وبخاصة أنه ﷺ صاحب الخلق العظيم، وامتدحه ربه عز وجل بارىء السموات والأرض، فليس بحاجة إلى مديح الشعراء، أو أبواق الدعاية، والإعلام التي يعتمد عليها الرؤساء والسلاطين في توطيد حكمهم، وإذاعة أعمالهم، والإشادة بهم في المحافل. إنه إذا سلمت نفس الشاعر من فتورها، وكان في موقف يثير شاعريته، ويوقظ حسه، وتنفعل به نفسه فإنه حينئذ يوفق في القول، ويقوى في الشاعرية، فإذا اجتمع له من ثورة النفس، ونشاط الشاعرية أن كان يعالج أمراً مألوف العلاج من قبل، بلغ من القوة ما أراد، سواء أكان مرتجلاً، أم غير مرتجل ، وما قاله حسان في الإشادة بالنصر والفخر، والهجاء

والتهديد، ورثاء شهداء المسلمين، فهو من الشعر الرصين، لأنه يكون في هذه المواقف ثائر النفس، صادق العاطفة، متحمساً لما يقول، ومؤمنا به، فهي موضوعات تهيج المشاعر وله في تناولها دربة ومران. ولذلك نقرر أن أبياته آنفة الذكر لا تنفرد من بين أشعاره الإسلامية بوصف القوة، ولا تستقل وحدها بحكم التعادل مع شعره الجاهلي من حيث استواء البناء الشعري، مهارة التصرف الفني، والقدرة على التأثير وبلوغ الهدف، بل وتشاركها في هذا الأمر قصائد ومقطوعات كان التوفيق فيها حليف الشاعر حسان بن ثابت، ومن روائع قصائده هذه: قصيدته التي يستهلها بقوله:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرتُه
تقوى الإله وبالأمر الذي شرعُوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهمُ
او حاولوا النفع في أشياعهم نفعُوا
سجية تلك منهم غيرُ محدثة
إن الخلائق، فاعلم شرُّها البدعُ

وقد ارتجلها ليعارض بها قصيدة الشاعر (الزبرقان بن بدر) شاعر وفد تميم حين قدموا على الرسول عام الوفادة وهو العام التاسع للهجرة وقد وفق حسان في الرد عليه، كما وفق أيضًا (ثابت بن قيس

بن شماس الخرزمي) في الرد على خطيب الوفد، وكان توفيقهما مفتاح الخير لبني تميم، فعدوه تأييداً من الله للرسول ﷺ وبسببه اهتدوا إلى الإسلام. ومن روائع شعر حسان قصيدته التي يفخر فيها بمساعي قومه في الجاهلية، وبمؤازرتهم للنبي وانتصاراتهم على قريش في الإسلام قوله:

اهاجك بالبيداء رسم المنازل؟
نعم، قد عفاها كل اسحم هاطلِ[1]

وجرت عليها الرامسات ذيولها
فلم يبق منها غير اشعث ماثِل

ديارُ التي راقَ الفؤادَ دلالُها
وعزَّ علينا ان تجودَ بنائل

لها عين كحلاءِ المدامع مطفل
تُراعى مقامًا يرتعي بالخمائِل

الأسحم: السحاب الأسود. الهاطل: الممطر. الرامات: الرياح التي تثير التراب متدفن به الآثار: الأشعث: الوتد الماثل: المنتصب. كحلاء المدامع. الظبية. المطفل: ذات الطفل. الخمائل: واحدته خميلة، وهو من الرمل ما أنبت الشجرة.

ومنها قصيدته التي يباهي فيها بمثل ما سبق، ويزيد عليه مادحه الخاصة، وقد استهلها بقوله:

(١) انظر الديوان ص ١٨٢ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.

لك الخيرُ، غضى اللومَ عني، فإنني
احبُّ من الأخلاق ما كان اجملاً[1]

ذريني وعلمي بالأمور وشيمتي
فما طائري يومًا عليكِ باخيلا[2]

فإن كنت لا منى، ولا من خليقي
فمنك الذي امسى عن الخير اعزلا

ومنها قصيدته التي يهجو فيها (الحارث بن هشام المخزومي) ويعيره بالفرار في معركة بدر تاركًا أخاه (أبا جهل) تنوشه أسياف المسلمين فيقول:

تبلت فؤادك في المنام خريدةٌ
تسقي الضجيعَ ببارد بسامِ[3]

كالمسك تخلطهُ بماء سحابة
او عاتقٍ كدم الذبيح ملام

وقد أوجع حسان (الحارث) بهجائه فيها، وبرع في تعبيره والسخرية به والتهكم منه حتى اضطر أن يعتذر عن فراره في ذلك

(١) انظر الديوان ص ١٨١. ص ٢٠٦.
(٢) انظر الديوان ص ١٨١ الأخيل: طائر مشئوم، وهو المسمى بالشقراق.
تبلت: أسقمته وذهبت بنقله. الخريدة: الحبيبة الساكنة وأراد بالبارد. ثغرها. كالمسك - شه ريق ثغرها بالمسك العاتق: الخمر.
(٣) ذاته ص ٢١٤.

اليوم، اعتذاراً قد يأباه الخلق العربي، وتنكره الفروسية، والطبع الشجاع، بيد أنه لا يخلو من البراعة والتفنن في التماس المعاذير، فيقول الحارث:

الله يعلم ما تركت قتالهم
حتى علوا فرسي بأشقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم
في مازق والخيل لم تتبدد
وعلمت أني إن أقاتل واحداً
اقتل، ولا يضرُر عدوى مشهدي
فصددت عنهم، والأحبة فيهم
طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

فهو لا ينكر الفرار، ولكنه يعتذر عنه، فيشهد الله على أنه لم يترك قتال المسلمين إلا بعد أن أثخنوا جراحه، وجللوا فرسه بدمه، وبعد أن أحس رائحة الموت تنبعث إليه من ناحيتهم، وتملأ خياشيمه في مضيق تحاصره الخيل فيه، وبعد تأكده من أن استمراره في القتال وحيداً لا بد أن ينتهي بمصرعه، دون أن يلحقهم أذى أو ضرر، فعندئذ ولى عنهم وفر، تاركاً أحبابه بينهم، مؤملاً أن ينتقم منهم في لقاء آخر يستعد له. وهيهات أن تغسل عنه براعة الاعتذار، عار الخوار والفرار.

ومنها قصيدته التي يخفف بها وقع النهاية الأليمة في غزاة «أحد»، وذلك بتسجيل ما كان في الجولة الأولى من حسن بلاء المسلمين، وشدة نيلهم من المشركين ومطلعها:

منعَ النومَ بالعشاء الهمومُ
وخيالٌ إذا تغور النجومُ
من حبيب أصاب قلبك منهُ
سَقَمٌ، فهو داخلٌ مكتومُ[1]

ومنها قصيدته التي يفاخر فيها «بني دارم من تميم» وذلك عام الوفادة، ويستهلها بقوله:

هل المجد إلا السؤود الفرد والندى
وجاه الملوك، واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبي محمداً
على انف راضٍ من معد وراغم
بحي حريد اصله وذماره
يحابيه الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حلّ وسط رجالنا
باسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا
وطينا له نفسنا بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تابعوا
على دينه بالمرهفات الصوارم

(1) الديوان ص ٢٢٤. تغورت النجوم: غابت.

ونحن ولَدن من قريش عظيمها

ولدتا نبي الخير من آل هاشم[1]

وختامًا .. رضي الله عن سيدنا «حسان بن ثابت»، ودعوته، وجزاه خير الجزاء.

***

(١) الديوان ص ٢٢٩.

الوفادة: يوم وفود بني تميم على النبي ﷺ. القود. القديم الحريد: المنفرد عن القبيلة، وأراه بالأعاجم: آل غسان لأن منازلهم في الجولان. المغانم. ما فاء للمسلمين من الغنائم دون حرب يعني أن بني النجار ولدت أم عبد المطلب جد النبي ﷺ.